سلسلة أخبار العرب

مجالس العرب

تأليف

حسن مغنية

عز الدين

مجالس العرب

سلسلة أخبار العرب

١٣

مجالس العرب

تأليف

حسن مغنيّه

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢م

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ١٥٢٥/١٣ بيروت - لبنان

المحتويات

الموضوع — الصفحة

كلمة التمهيد*

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه أستعين

لقد أجمع المؤرخون والرواة، ومن يدعي العلم بأخبار، وأحوال الأمم والقبائل، أن غالبية بلاد العرب في شبه الجزيرة، كانت تخضع لأنظمة سياسية وتشريعات، تختلف في بعضها عن بعض. وكان للعرب حضارة قبل الاسلام، في اليمن والحيرة والشام والحجاز.

ففي اليمن كانت قاعدة الملك صنعاء، وكان المالكون فيها أقيال حمير، ومن ملوكهم بلقيس، وكانت معاصرة للنبي سليمان بن داود عليه السلام، ملك بني اسرائيل بأورشليم.

---

* فروخ: الدكتور عمر ـ العرب في حضارتهم وثقافتهم ص٧٥/ علي: الدكتور جواد ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ج٣ص٢٣٠ وج٤ص٢١٥ وص٢٢٤

وفي الحيرة كان الملوك من لخم، إحدى قبائل اليمن التي وصلت بعد سيل العرم، ومن أعظم ملوكهم جذيمة الأبرش، والنعمان بن امرىء القيس.

وكان الملك في الشام لآل غسان، وهم من قحطان، رحلوا من اليمن بعد سيل العرم، وأول من تولى الشام منهم جفنة بن عمرو، وهو الذي ينسب اليه ملوك الغساسنة، وتعاقب ملوك غسان على الشام وما والاها.

أما في الحجاز فكانت الزعامة والرياسة لقريش، ولكنهم لم يكونوا يسمون ملوكاً، بل كانت أعمال البلاد وتيسير شؤون العباد مقسمة بين زعماء القبائل منهم، فلا يلقب زعيمهم والمتنفذ فيهم بلقب ملك.

وكان «للملأ» وهم أصحاب الحل والعقد في البلد، الحكم بين الناس وفق الأعراف والعادات والقوانين الموروثة، ولهم مجتمع خاص في البلد، يكون ناديهم ومقر أحكامهم، وقد عرف بـ «دار الندوة» في مكة المكرمة، بقرب الكعبة المشرفة، كما ورد في الروايات والأخبار، وبـ «المزوّر» عند أهل اليمن وقد ورد ذكر «النادي» في القرآن الكريم في تقريع أبي جهل، يقول

تعالى: ﴿ أرأيت الذي ينهى. عبداً اذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت ان كذّب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى. كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدع ناديه ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾[2] قيل أنهم كانوا يحذفون الناس في مجالسهم، فأعلم الله ان هذا من المنكر، وانه لا ينبغي ان يتعاشر الناس عليه، ولا يجتمعوا على الهُزُو والتلهي، وأن لا يجتمعوا إلا فيما قرب الله وباعد من سخطه. وقال طرفة بن العبد:

فإن تبغني في حلقة القوم[3] تلقني
وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

والظاهر أن لكل قبيلة وكل مدينة ناد على مثال نادي قريش في مكة، ولم يكن لوصول الملأ الى النادي[4]

---

١ ـ سورة العلق الآيات: ٩و١٠و١١و١٢و١٣و١٤و١٥و١٦و١٧.
٢ ـ سورة العنكبوت الآية ٢٩
٣ ـ حلقة القوم: مجلسهم.
٤ ـ ندى القوم وانتدوا وتنادوا :(اجتمعوا). والندوة :الجماعة؛ =

واجتماعهم فيه لتصريف شؤون البلاد والعباد نهج مرسوم أو محدد، بل أمر عشائري وطريقة حكم عشائرية، فتُبحث فيه كافة شؤون العشيرة من سياسية واجتماعية ودينية ومعيشية، لذا فهو مجلس امة ذلك الزمن وبرلمان شعب ذلك العهد.

وقد كان الحكم في يثرب، مناوبة بين الأوس والخزرج، يتقلد كل زعيم من زعماء الحي الواحد حكم الرعية لمدة سنة، يليه في الحكم زعيم في الحي الثاني لمدة سنة، وبذلك يكون لأهل المدينة ملك كل عام.

= ودار الندوة منه: أي دار الجماعة، سميت من النادي، وكانوا إذا حزّبهم أمر، ندوا اليها فاجتمعوا للتشاور. ونادى الرجل: جالسه في النادي. والندى: المجالسة. وتنادوا: تجالسوا في الناديي. والندي: المجلس ما داموا مجتمعين فيه، فإذا تفرقوا عنه فليس بندي، وقيل الندي: مجلس القوم نهاراً. والنادي: مجتمع القوم وأهل المجلس، فيقع على المجلس وأهله. وفي الحديث: واجعلني في الندي الأعلى: أي اجعلني مع الملأ الأعلى من الملائكة. وفي حديث ابي سعيد: كنا انداء فخرج علينا رسول الله (ص). والأنداء ج النادي: وهم المجتمعون. وندوت: أي حضرت النادي. (لسان العرب مادة ندي).

أما سائر المدن العربية في الجزيرة، فقد كان بعضها تحت سلطة حكام يلقبون أنفسهم ملوكاً، ولكنهم ليسوا بملوك، بل مشايخ مقاطعات أو مشايخ مدن.

أما في اليمن والعراق والشام، فكانت حكومات مطلقة، يقدم على رأس كل حكومة ملك.

وكان النظام القبلي سائداً في سكان البادية، ولم يكن هناك حكومة مركزية، لرعاية مصالح الشعب وتنفيذ القانون، والسهر على نشر الطمأنينة والأمن، والعدل بين جميع الطبقات، فالقبيلة دولة مستقلة، لها كيانها الذاتي ونظامها الخاص، يتكون شعبها من أفرادها، ولها حرمها ووطنها، الذي تدافع عنه وتحافظ عليه، وتحميه من كل غريب، لذلك كان يسمى الحمى، فهو حرم للقبيلة، لا ينبغي لأحدٍ أن يمسه، ولا يسوغ لأجنبي أن يقترب منه، حدوده معروفة وحرمته مصانة، وكان أفراد القبيلة يتساندون، ويتعاونون على حماية شرف القبيلة، فهم سواسية فيما بينهم، كل ما عليهم واجب نحو القبيلة، وكل ما لهم حق على القبيلة، فلا يدينون بالطاعة إلا لرئيسهم، وطنيتهم قبلية وليست شعبية، وحريتهم شخصية وليست إجتماعية، فواجب القبيلة حماية أفرادها وجوباً كفائياً، عليها أن تهب كلها للدفاع عنه، ظالماً

كان أو مظلوماً، تنتصف له وتأخذ بحقه، إذا مُست كرامته أو أصابه ضيم.

وهكذا تكون قوة القبيلة ومكانتها وهيبتها وشرفها وحياتها في قوة أفرادها.

من هنا نشأت العصبية، فاشتد تعلق الفرد بقبيلتـه، وأصبـح التعصب للدم شديـداً! فوقفت الجمـاعة بجـانب الفرد، في جميع الأحوال وفي مختلف المواقف، تتمسك القبيلة في كل فرد من أفرادها ترعاه وتحافظ عليه، وتنتصف له ما دام يسير في طاعتها وحسب نصائحها، ووفق رغبتها وإرادتها وقانونها. فإذا ما بدر من أحد افرادها سلوك لا ترضاه، أو تعلق بأمور لا توافق عليها، نفته من مجلسها، وخلعته من جماعتها، وطردته من بيتها؛ فتعلن عندئذ القبيلة على رؤوس الأشهاد، تبرئها مما ارتكبه، حيث يصبح مخلوعاً من القبيلة، وغالباً ما يكون ذلك بحضور الجميع، كي يعرف النـاس ذلك، فلا يؤاخذوها على ما يقترف من جرائم، أو ما يرتكب من جهالات. ويكون ذلك بمثابة سحب الجنسية القبلية منه، واضطراره الى البحث عن جماعة تنزله معها، أو مكان يؤويه، وقد لا يكون هذا الأمر سهلاً لصعوبة حمايته، حيث يكون

غالباً من المشاغبين الأشرار، والذين لا يمكنهم العيش بسلام كسائر الناس.

وقد يجتمع هؤلاء الخلعاء ويتكتلون، فيؤلفون عصابات خطيرة، تعيش على النهب والسلب، وقطع الطرق وشن الغارة لكسب الرزق، فتلقي الرعب في نفوس الناس، وتستولي على ما يقع في يديها من مال حرام، تبذره وتبدده في سبيل عيشها، وقد يلجأون في كثير من الأحيان الى الأعمال الانتقامية، فيفتكون بخصومهم، وقد لا تنحصر هذه الاعمال بسكان البادية فحسب، بل تتعداها الى سكان المدن.

ونتيجة لهذه الحالات المتعددة الأشكال والألوان، كان لا بد لكل قبيلة من مجلس مؤلف من رؤساء الأسر، يعود اليه مناقشة جميع القضايا المتعلقة بأفراد القبيلة.

وكان لكل مجلس من هذه المجالس رئيس، هو شيخ القبيلة وحاكمها، يعود اليه البت في جميع قضايا القبيلة، وهو شخصية فذة، يختارها الجميع كي يكون المعبر بلسانهم، والمنفذ لإرادتهم، فهو يستقبل الوفود، ويدفع بجماعته الى المعارك، ويشرف على المحالفات ومفاوضات الصلح، وإعلان الحرب، وإضافة الضيوف، واتخاذ كل ما من شأنه مصلحة

أفراد القبيلة، وعليه أن يستشير القدماء والذوات، خاصة فيما يتعلق بشؤون الحرب وخوض المعارك.

وكان لا بد ان تتوفر في الرئيس صفات كمالية تجعله موضع ثقة مرؤسيه، وأهم هذه الصفات: الاخلاص والوفاء والأمانة، والسهر على المصلحة العامة، وحسن معالجة الأمور، والعمل على رفع شأن القبيلة، وإعلاء كلمتها، وقد أحكمته التجارب، له هيبة ووقار، وحزم وتضحية وإيثار، وسخاء وجود وغنى، وشجاعة وصبر وحلم، ورزانة وثبات وسداد رأي، وطموح وحزم وبعد نظر[1].

وقد جمع كتاب «مجالس العرب» بين دفتيه صحائف خالدة من التراث الأدبي، وحوى طائفة كبيرة من الأخبار العربية، التي يقصد بها تصوير المجالس وأندية القبائل، التي تضم شيوخ العشائر وسادتها المحنكين، حيث تدور المناقشات والمحاورات والمداولات، وتنفذ فيها المقررات والتوصيات، بالإضافة الى النظر في الشؤون التجارية والدينية والاجتماعية والعسكرية؛ وقد يخطبون أو يستمعون الى بعض ما ينظمه شعراؤهم، وفي أثناء ذلك يدلي سادتهم بحكمهم، فتكون

---

١ ـ ضيف: الدكتور شوقي ـ العصر الجاهلي ص٥٩.

أحكامهم مبرمة، لما يتمتعون به من ثقة وتقدير، ولما أكسبتهم تجاربهم في الحياة، كما قد يعقد زواج أو تدرَّع فتاة[1].

وإني لارجو الله مخلصاً أن أكون قدأديت بعملي هذا فائدة ولو يسيرة، للتاريخ الأدبي، وأوضحت بعض ما للتراث العربي من مجدٍ وعلو وإيثار. والله حسبي ووليي.

المؤلف

---

١ ـ تُدرع الفتاة: يشق عنها ثوب الطفولة وتكتسي ثوب النساء.

سقيفة بني ساعدة*

لما توفي النبي (ص) اجتمعت الانصار في سقيفة بني ساعدة، فأجلست سعد بن عبادة الخزرجي[1]، وعصبته بعصابة، وثنت له وسادة.

---

* اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٢٣/الطبري: ابن جرير ـ تاريخ الطبري ج٣ ص١٩٩و٢٠٧/ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة المجلد الأول ص ١٢٣و١٣٠ والمجلد الثاني ص ٢و١٦.

١ ـ سعد بن عبادة: صحابي خزرجي. ضمد جرح النبي بعد وقعة أحد مع سعد بن معاذ. سيد الخزرج توفي بحوران سنة ١٥هـ قعد يبول في جحر، فخرَّ ميتاً، وسمع يومئذ صائح من الجن في داره بالمدينة يقول:

نحن قتلنا سيد الـ
خزرج سعد بن عبادة
قد رميناه بسهم
فلم يخط فؤاده

وبلغ أبا بكر وعمر والمهاجرين، فأتوا مسرعين، فنحوا الناس عن سعد، وأقبل أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فقالوا: يا معشر الأنصار منا رسول الله، فنحن أحق بمقامه.

وقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أميرا!

فقال أبو بكر: منا الأمراء وأنتم الوزراء.

فقام ثابت بن قيس بن شماس، وهو خطيب الأنصار، فتكلم وذكر فضلهم.

فقال أبو بكر: ما ندفعهم عن الفضل، وما ذكرتم من الفضل فانتم له أهل، ولكن قريش أولى بمحمد منكم، وهذا عمر بن الخطاب الذي قال رسول الله (ص): اللهم اعز الدين به،! وهذا أبو عبيدة بن الجراح، الذي قال رسول الله (ص): أمير هذه الأمة، فبايعوا أيهما شئتم!

فأبيا عليه وقالا: والله ما كنا لنتقدمك، وأنت صاحب رسول الله (ص) وثاني اثنين.

فضرب أبو عبيدة على يد أبي بكر، وثنى عمر، ثم بايع من كان معه من قريش.

ثم نادى أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم كنتم أول من نصر، فلا تكونوا أول من غير وبدل. وقام عبد الرحمن بن عوف فتكلم فقال: يا معشر الأنصار، انكم، وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي.

وقام المنذر بن أرقم فقال: ما ندفع فضل من ذكرت، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد، يعني علي بن أبي طالب.

فوثب بشير بن سعد من الخزرج، فكان أول من بايعه من الأنصار، وأُسيد بن حُضير الخزرجي، وبايع الناس حتى جعل الرجل يطفر[1] وسادة سعد بن عباد، حتى وطئوا سعداً.

---

١ ـ طفر: وثب في ارتفاع، كما يطفر الانسان على الحائط، أي يثب الى ما وراءه. والطفرة: الوثبة في ارتفاع.

وقال عمر: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً.

وجاء البراء بن عازب، فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم، بويع أبو بكر.

فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه، ونحن أولى بمحمد.

فقال العباس: فعلوها، ورب الكعبة.

وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون في علي.

فلما خرجوا من الدار قام الفضل بن العباس، وكان لسان قريش، فقال: يا معشر قريش، إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم.

وقام عتبة بن أبي لهب فقال:

ما كنت احسب أن الأمر منصـرف
عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
عن أول النـاس إيمـانـاً وسـابقـة
وأعلم النـاس بـالـقـرآن والسـنن

وآخر الناس عهداً بالنبي، ومن
جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما فيهم لا يمترون به،
وليس في القوم ما فيه من الحسن.

فبعث اليه علي فنهاه. وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم: العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب، فأرسل أبو بكر الى عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة، فقال: ما الرأي؟

قالوا: الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب، فتجعل له في هذا الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده، فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب حجة لكم على علي: إذا مال معكم.

فانطلق أبو بكر وعمر وعبيدة بن الجراح والمغيرة

حتى دخلوا على العباس ليلاً، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله بعث محمداً نبياً وللمؤمنين ولياً، فمنَّ عليهم بكونه بين أظهرهم، حتى اختار له ما عنده، فخلى على الناس أموراً ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم مشفقين، فاختاروني عليهم والياً، ولأمورهم راعياً، فوُليتُ ذلك، وما اخاف بعون الله وتشديده وهَناً، ولا حيرة، ولا جبناً، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وما انفك يبلغني عن طاعنٍ يقول الخلاف على عامة المسلمين، يتخذكم لجأً، فتكون حصنه المنيع، وخطبه البديع، فإما دخلتم مع الناس فيما اجتمعوا عليه، وإما صرفتوهم عما مالوا اليه، ولقد جئناك ونحن نريد أن لك في هذا الأمر نصيباً يكون لك، ويكون لمن بعدك من عقبك اذا كنت عمّ رسول الله، وإن كان الناس قد رأوا مكانك ومكان صاحبك....، وعلى رسلكم بني هاشم، فإن رسول الله منا ومنكم.

فقال عمر بن الخطاب: أي والله وأخرى، إنا لمن نأتكم لحاجة اليكم، ولكن كرهاً أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقم الخطب بكم وبهم، فانظروا لأنفسكم.

فحمد العباس الله وأثنى عليه وقال: إن الله بعث محمداً كما وصفت نبياً وللمؤمنين ولياً، فمنَّ على أمته به، حتى قبضه الله اليه، واختار له ما عنده، فخلى على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين الحق، لا مائلين بزيغ الهوى، فإن كنت برسول الله فحقاً أخذت، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم، فما تقدمنا في أمرك فرضاً، ولا حللنا وسطاً، ولا برحنا سخطاً، وإن كان هذا الأمر إنما وجب لك بالمؤمنين، فما وجب إذ كنا كارهين. ما أبعد قولك: من أنهم طعنوا عليك، من قولك إنهم اختاروك ومالوا اليك، وما أبعد تسميتك بخليفة رسول الله من قولك: خلّى على الناس أمورهم ليختاروا فاختاروك؛ فأما ما قلت إنك تجعله لي، فإن كان حقاً للمؤمنين، فليس لك ان تحكم فيه، وإن كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض، وعلى رسلك، فإن رسول الله (ص) من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها. فخرجوا من عنده.

وكان فيمن تخلّف عن بيعة أبي بكر، أبو سفيان بن حرب، وقال: أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي

هذا الأمر عليكم غيركم؟ وقال لعلي بن أبي طالب: أمدد يدك أبايعك، وعلي معه قصي، وقال:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم
ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم واليكم
وليس لها إلا أبو حسنٍ علي
أبا حسنٍ فاشدد بها كفَّ حازمٍ
فانك بالأمر الذي يرتجى ملي
وإنّ امرأً يرمي قصي وراءه
عزيزُ الحمى، والناس من غالبٍ قصيّ

وكان خالد بن سعيد غائباً، فقدم فاتى علياً فقال: هلّم أبايعك فو الله ما في الناس أحدٌ أولى بمقامٍ محمدٍ منك. واجتمع جماعة الى علي بن أبي طالبٍ يدعونه الى البيعة له، فقال لهم: اغدوا على هذا محلقين الرؤوس. فلم يغد عليه إلا ثلاثة نفر.

المأمون والزنادقة*

ذكر ثمامة بن أشرس[1]، قال: بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة، ممن يذهب الى قول ماني[2]، ويقول بالنور والظلمة، من أهل البصرة، فأمر بحملهم اليه بعد أن سُمُّوا واحداً واحداً، فلما جمعوا نظر اليهم طفيلي فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فدخل في وسطهم، ومضى معهم، وهو لا يعلم

---

* المسعودي - مروج الذهب ج٤ص٩

١ - ثمامة بن أشرس: إمام أهل الفكر الحر في العصر العباسي، من المتكلمين. استدعاه هارون الرشيد والمأمون الى بلاطهما وكان يلذع بنقده آراء المحافظين.

٢ - ماني: (Manes): (٢١٥-٢٧٦م) مؤسس مذهب المانوية القائل بمبدأين بالوجود: مبدأ الخير ومبدأ الشر، النور والظلام، واليه مرجع اليزيدية. أدخل ماني في التصوير الفارسي، نسق التصوير الصيني، ورسم الملائكة والشياطين.

شأنهم، حتى سار بهم الموكلون الى السفينة، فقال الطفيلي: نزهة لا شك فيها، فدخل معهم السفينة؛ فما كان بأسرع من أن جيء بالقيود، فقيد القوم والطفيلي معهم، فقال الطفيلي: بلغ أمر تطفيلي الى القيود، ثم أقبل على الشيوخ فقال: فديتكم أيش أنتم؟!

قالوا: بل أيش أنت؟ ومن أنت من إخواننا؟

قال: والله ما أدري، غير أني والله رجل طفيلي، خرجت في هذا اليوم من منزلي فلقيتكم، فرأيت منظراً جميلاً، وعوارض حسنة ونعمة ظاهرة، فقلت: شيوخ وكهول وشباب جمعوا لوليمة، فدخلت في وسطكم، وجاذبت بعضكم كأني في جملة أحدكم، فصرتم الى هذا الزورق، فرأيته قد فرش بهذا الفرش ومهد، ورأيت سُفراً[١] مملوءة وجرباً وسلالاً، فقلت: نزهة يمضون اليها الى بعض القصور والبساتين، إن هذا اليوم مبارك، فابتهجت سروراً، إذ جاء هذا الموكل بكم فقيدكم وقيدني معكم، فورد عليَّ ما قد أزال عقلي، فاخبرني ما الخبر

---

١ ـ السُفرة ج سفر: طعام المسافر/ ما يبسط عليه الأكل.

فضحكوا منه وتبسموا، وفرحوا به وسروا، ثم قالوا: الآن قد حصلت في الاحصاء، وأوثقت في الحديد، وأما نحن فمانية[1] غُمِز بنا الى المأمون، وسندخل اليه، ويسائلنا عن أحوالنا، ويستكشفنا عن مذهبنا، ويدعونا الى التوبة والرجوع عنه، بامتحاننا بضروب من المحن: منها إظهار صورة ماني لنا، ويأمرنا أن نتفل[2] عليها ونتبرأ منها، ويأمرنا بذبح طائر ماء، وهو الدُّرَّاج[3]؛ فمن أجابه الى ذلك نجا، ومن تخلف عنه قتل، فإذا دعيت وامتحنت، فأخبر عن نفسك واعتقادك، على حسب ما تؤديك الدلالة الى القول به، وأنت زعمت أنك طفيلي، والطفيلي يكون معه مداخلات وأخبار، فاقطع سفرنا هذا الى مدينة بغداد بشيء من الحديث وأيام الناس.

فلما وصلوا الى بغداد وأدخلوا على المأمون، جعل

---

١ ـ مانية: نسبة الى ماني صاحب المذهب.

٢ ـ تفل: بصق وطرح التفل أو التفال. والتفل والتفال: البصاق.

٣ ـ الدراج: طائر شبيه بالحجل وأكبر منه، أرقط بسواد وبياض، قصير المنقار، يطلق على الذكر والأنثى.

يدعو بـاسمائهم رجـلًا رجلاً فيسـأله عن مـذهبه، فيخبره بالاسلام، فيمتحنه ويدعوه الى البـراءة من ماني، ويظهر له صـورته، ويـأمره أن يتفـل عليها والبراءة منها وغير ذلك؛ فيأبون فيمرهم على السيف، حتى بلغ الى الطفيلي، بعد فراغه من العشرة، وقد استوعبوا عدة القوم؛ فقال المأمـون للموكلين: مَنْ هذا؟!

قالوا: والله ما ندري، غير أنا وجدناه مع القوم، فجئنا به.

فقال له المأمون: ما خبرك؟!

قال: يا أمير المؤمنين، إمـرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً، وإنما أنا رجل طفيلي، وقصَّ عليه خبره من أوله الى آخره.

فضحك المأمون، ثم أظهر له الصورة، فلعنها وتبرأ منها، وقال: أعطونيها حتى أسلح عليها، والله ما أدري ما ماني: أيهودياً كان أم مسلماً.

فقال المأمون: يؤدب على فرط تطفله ومخاطرته بنفسه.

وكان ابراهيم بن المهدي[1] قائماً بين يدي المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين هب لي ذنبه، وأحدثك بحديث عجب في التطفل عن نفسي.

قال: قل يا ابراهيم.

قال: يا أمير المؤمنين، خرجت يوماً فمررت في سكك بغداد متطرفاً، حتى انتهيت الى موضع، فشممت رائحة أبازير[2]، من جناح في دار عالية، وقدور قد فاح قُتارها[3] فتاقت نفسي اليها، فوقفت على خياط فقلت: لمن هذه الدار؟

---

١ ـ ابراهيم بن المهدي: (٧٧٩-٨٣٩م) هو ابن الخليفة المهدي ويكنى أبا اسحاق، أشهر أولاد الخلفاء ذكراً في الغناء واتقنهم صنعة، ومن أعلم الناس في ذاك الوقت بالنغم والايقاع. من المعدودين في طيب الصوت خاصة، ولكنه كان إذا غنى الغناء القديم عن الأوائل في ادوار الطوال، حذف كثيراً من نغمها وخففها، وقد عيب عليه ذلك، له مع اسحاق الموصلي مجادلات كثيرة في اصول النغم والايقاع.

٢ ـ البزرج أبزر وجج أبازير: التابل وهو ما يطيب به الغذاء.

٣ ـ قتر اللحم: سطعت رائحته. والقتار: رائحة البخور واللحم والشواء والعظم المحرق والعود.

فقال: لرجل من التجار البزازين[1]

قلت: ما اسمه؟

قال: فلان بن فلان.

فرفعت طرفي الى الجناح، فإذا فيه شباك، فنظرت الى كفٍ قد خرجت من الشباك ومعصم، ما رأيت أحسن منهما قط؛ فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور، فبقيت باهتاً وقد ذهل عقلي، ثم قلت للخياط: هو ممن يشرب النبيذ؟

قال: نعم، وأحسب عنده اليوم دعوة، ولا ينادم إلا تجاراً مثله مستورين؛ فأنا كذلك إذا أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب، فقال لي الخياط: هذان منادماه.

قلت: ما اسماهما؟ وما كناهما؟

فقال: فلان وفلان.

فحركت دابتي حتى دخلت بينهما، وقلت: جعلت فداكما، قد استبطأ كما أبو فلان أعزه الله، وسايرتهما

---

١ ـ البزاز: بياع البز. والبزازة: التجارة أو حزمة البزاز.

حتى انتهينا الى الباب؛ فقدماني، فدخلت ودخلا؛ فلما رآني صاحب المنزل لم يشك إلا أني منهما بسبيل، فرحب وأجلسني في أجلّ موضع، فجيء يا أمير المؤمنين بالمائدة، وعليها خبز نظيف، واتينا بتلك الألوان؛ فكان طعمها أطيب من رائحتها فقلت في نفسي: هذه الألوان قد أكلتها، وبقي الكف والمعصم؛ ثم رفع الطعام فغسلنا أيدينا، ثم صرنا الى مجلس المنادمة، فإذا هو أنبل مجلس وأجلّ فرش، وجعل صاحب المجلس يلطف بي ويقبل علي بالحديث، والرجلان لا يشكان أنه مني بسبيل، حتى إذا شربنا أقداحاً، خرجت علينا جارية تتثنى كأنها غصن بان، فسلمت غير خجلة، وهُيئت لها وسادة، وأتي بعود فوضع في حجرها، فجسته فتبينتُ الحذقَ في جسها، ثم اندفعت تغني.

توهمها طرفي فآلم خدَّها
فصار مكان الوهم من نظري أثرُ
وصافحها كفي فآلم كفها
فمن لمس كفي في أناملها عَقْرُ[1]

---

١ ـ عقره: جرحه. العقر: الجرح.

ومرّت بقلبي خاطراً فجرحتها
ولم أر شيئاً قط يجرحه الفكر

فهيجت والله يا أمير المؤمنين عليَّ بلابلي، وطربت لحسن غنائها وحذقها، ثم اندفعت تغني:

أشرت اليها: هل علمت مودتي
فردت بطرف العين: إني على العهد
فمدت عن الاظهار عمداً لسرها
وحادث عن الاظهار أيضاً على عمد

فصحت: السلامة!!! وجاءني من الطرب، ما لا أملك معه النفس ولا الصبر، واندفعت تغني:

أليس عجيباً أن بيتاً يضمني
وإياك لا نخلو ولا نتكلم
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها
وترجيح أحشاء على النار تضرم
إشارة أفواه، وغمز حواجب
وتكسير أجفان، وكفٌ يسلم

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حذقها، ومعرفتها بالغناء، وإصابتها معنى الشعر، وأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأته، فقلت: بقي عليك يا جارية شيء.

فغضبت وضربت بعودها الأرض، ثم قالت: متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء؟

فندمت على ما كان مني، ورأيت القوم قد تغيروا إليَّ، فقلت: أليس ثمَّ عود؟

قالوا: بلى يا سيدنا، فأُتيت بعود، فأصلحت من شأنه ما أردت واندفعت أغني:

ما للمنازل لا يُجبن حزينا؟!
أصممن أم بَعُدَ المدى فبلينا؟
راحوا العشية روحة مذكورة
إن متن متنا، وإن حيين حيينا

فما استتممته جيداً حتى خرجت الجارية، فأكبت على رجلي تقبلها، وهي تقول: المعذرة والله اليك يا سيدي، فما سمعت من يغني هذا الصوت مثلك.

وقام مولاها وكل من كان عنده، فصنعوا كصنعها، وطرب القوم، واستحثوا الشرب، فشربوا بالطاسات، ثم اندفعت أغني:

أبالله هل تُمسين لا تذكرينني
وقد سَجَمَت[1] عيناي من ذكرك الدما

الى الله أشكو بخلها وسماحتي
لها عسل مني وتبذل علقما

فردي مصاب القلب أنت قتلته
ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما

الى الله أشكو انها أجنبية
وأني لها بالود ما عشت مكرما

فجاء من طرب القوم يا أمير المؤمنين، ما خشيت ان يخرجوا من عقولهم فأمسكت ساعة، حتى إذا هدأ القوم، اندفعت أغني الثالثة:

هذا محبك مَطويٌّ على كمده
صب مدامعه تجري على جسده

---

١ ـ سجم الدمع: سال قليلاً أو كثيراً وانصبَّ فهو ساجم.

لــه يــد تســأل الــرحمن راحتــه
مما بــه، ويــد أخــرى عــلى كبــده
يــا من رأى كلفاً[1] مستهتــراً أسفاً
كــانــت منيتــه في عــينــه ويــده

فجعلت الجـاريـة يــا أمـير المؤمنــين تصيـح: السـلامة!!.. هـذا والله الغناء يـا مولاي، وسكـر القوم، وخرجوا من عقولهم، وكان صاحب المنـزل جيد الشراب ونديماه دونه، فأمر غلمانه مع غلمانهم بحفظهم وصرفهم الى منازلهم، وخلوت معه فشربنا أقداحاً، ثم قال: يا سيدي، ذهب والله ما خلا من أيـامي باطـلاً، إذ كنت لا أعرفـك، فمن أنت يا مولاي؟ فلم يزل يلح علي حتى أخبرته، فقام فقبل رأسي، وقال: يا سيدي، وإني أعجب أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك، وإذا أنا منذ اليوم مع الخلافة ولا اعلم؛ وسألني عن قصتي، وكيف حملت نفسي على ما فعلته، فأخبرته خبر الطعام والكف والمعصم.

فقال: يا فلانة، لجارية له، قولي لفلانة تنزل؛

١ ـ كَلِف به: أحبه حباً شديداً واولع به فهو كلف.

فجعل ينزل الي جواريه واحدة واحدة، فأنظر الى كفها وأقول: ليست هي، حتى قال: والله ما بقي غير أمي وأختي، ولأنزلنهما اليك.

فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت له: جعلت فداك، إبدأ بالأخت قبل الأم، فعسى أن تكون صاحبتي.

فقال: صدقت؛ ففعل.

فلما رأيت كفها ومعصمها قلت: هي هي، جعلت فداك، فأمر غلمانه من فوره، فصاروا الى عشرة مشايخ من جلّة جيرانهم فأحضروا، وجيء ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم، ثم قال: هذه أختي فلانة، وأنا أشهدكم أني قد زوجتها من سيدي ابراهيم بن المهدي، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم.

فرضيت وقبلت النكاح، ودفعت اليها البدرة الواحدة، وفرقت الأخرى على المشايخ، وقلت لهم: اعذروا فهذا الذي حضرني في هذا الوقت، فقبضوها وانصرفوا.

ثم قال: يا سيدي، أمهد لك بعض البيوت تنام مع أهلك.

فأحشمني[1] والله يا أمير المؤمنين ما رأيت من كرمه وسعة صدره، فقلت: بل أحضر**عمارية**[2] واحملها الى منزلي.

فقال إفعل ما شئت.

فأحضرت عمارية، وحملتها الى منزلي، فوحقك يا أمير المؤمنين، لقد حمل الي من الجهاز ما ضاق عنه بعض دوري.

فتعجب المأمون من كرم ذلك الرجل، وأطلق الطفيلي، واجازه جائزة سنية، وأمر إبراهيم بإحضار ذلك الرجل، فصار بعد من خواص المأمون وأهل مودته، ولم يزل معه على أفضل الأحوال السارة، في المنادمة وغيرها.

---

١ ـ حشّمه وأحشمه: أخجله. الحشمة: الحياء/ الأدب والاحتشام.
٢ ـ العمار: الريحان يزين به مجلس الشراب. العَمَر: المنديل تغطي به الحرة رأسها.
العَمْـرَة: كل شيء يجعل على الرأس من تاج وعمامة وغيرهما.

حبك الشيء يعمي ويصم*

قال إسحاق الموصلي: حدثتني عمتي - وكانت أسنَّ من أبي وعمرت بعده - قالت: كان السبب في طلب أبيك الغناء والمواظبة عليه، لحناً سمعه لجميلة، في منزل يونس بن محمد الكاتب، فانصرف وهو حزين كئيب مهموم مغموم، **لم يطعم**[1] ولم يقبل علينا بوجهه كما كان يفعل. فسألته عن السبب فأمسك. فألححت عليه فانتهرني، وكان لي مكرماً، فغضبت وقمت من ذلك المجلس الى بيت آخر، فتبعني وترضاني، وقال لي: أحدّثك ولا كتمان منك! عشقت صوتاً لامرأة قد ماتت، فأنا بها وبصوتها هائم، إن لم يتداركني الله برحمته. -

فقالت: أتظنُّ أن الله يحي لك ميتاً؟!

قال: لا.

---

* الأصفهاني - أبو الفرج - الأغاني ج٧ص١٤٠

١ - لم يطعم: لم يتناول الطعام

قالت : فما تعليقك قلبك بما لا يعطاه أحد! وأما عشقُك الصوت فهو أن تحذقه وتغنيه عشر مرار، فتمله ويذهب عشقك له!

فكأنه ارعوى ورجع الى نفسه، فقام وقبل رأسي ويدي ورجلي، وقال لي: فرجتِ عني ما كنت فيه من الكرب والغم ثم تمثل:

« حبك الشيء يعمي ويصم »

ولزم بيت يونس حتى حذق الصوت، ولم يمكث إلا زمناً يسيراً حتى مات يونس، وانضم الى **سياط**[1] وكان من أحذق اهل زمانه بالغناء، وأحسنهم أداءً عمن مضى.

قالت عمتي: فقلت لابراهيم : وما الصوت ؟

---

١ ـ سياط: لقب غلب عليه، واسمه عبد الله بن وهب، ويكنى أبا وهب، مكي، مولى خزاعة. كان مقدماً في الغناء رواية وصنعة، ومقدماً في الضرب معدوداً في الضراب وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلي، وعنه أخذا ونقلا نظراؤهما الغناء القديم، وأخذه هو عن يونس الكاتب. وكان سياط زوج أم إبن جامع.

فأنشدني الشعر ولم يحسن أداء الغناء:

من البكرات عراقية
تسمى سُبيعة أطريتُها[1]
من آل أبي بكرة الأكرمين
خصصتُ بودي فأصفيتُها
ومن حبها زرتُ أهل العراق
وأسخطت أهلي وأرضيتها
أموت اذا شَحَطَتْ[2] دارها
وأحيا اذا أنا لاقيتها
فأقسمُ لو أن ما بي بها
وكنتُ الطبيب لداويتها

قالت عمتي: هذا شعر حسن، فكيف به إذا قطِّع ومدِّد! فما مضت الأيام والليالي حتى سمعت اللحن مؤدى؛ فما خرق مسامعي شيء قط أحسنُ

---

١ ـ أطرى إطراءً فلاناً: أحسن الثناء عليه وبالغ في مدحه، فكأنه جعله غضاً.
٢ ـ شَحِط المكان: بعُد. وشحطه عند العامة: طرده.

منه؛ ولقد أذكرني بما يؤثـر من حسن صوت داود وجمال يوسف.

فبينا أنا يوماً جـالسـة ، إذ طلع علـيَّ ابراهيم ضاحكاً مستبشراً؛ فقال لي: ألا أحدثك بعجب؟

قلت: وما هو؟

قال: إن لي شريكاً في عشق صوت جميلة!

قلت: وكيف ذلك؟

قالت: كنت عند سياط، في يومنا هذا، وأنـا أُغنيه الصوت، وقد وقفني فيه على شيء، لم أكن أحكمتـه عن يـونس، وحضـر عنـد سيـاط شيـخ نبيل، فسبحَّ[١] على الصوت تسبيحاً طويلاً؛ فظننت أنه فعل ذلك لا ستحسان الصوت. فلما فرغت أنا وسياط من اللحن، قال الشيخ: ما أعجب أمر هذا الشعر، وأحسن ما غُني به، وأحسن ما قال قائله!

فقلت له دون القوم: وما بلغ من العجب به؟

قال: نعم! حجَّت سُبيعةُ من ولد عبد الرحمن ابن أبي بكره، وكانت من أجمل النساء، فأبصرها

---

١ ـ فسبَّح: فقال: سبحان الله!

عمر بن أبي ربيعة؛ فلما انحدرت الى العراق، اتّبعها يشيعها، حتى بلغ معها موضعاً يقال له الخورنق. فقالت له: لو بلغت الى أهلي وخطبتني لزوجوك.

فقال لها: ما كنت لأخلط تشييعي إياكي بخطبة، ولكن أرجع ثم آتيكم خاطباً، فرجع ومرّ بالمدينة، فقال فيها:

من البكرات عراقية
تسمى سبيعة أطريتها

ثم أتى بيت جميلة، فسألها أن تغني بهذا الشعر ففعلت. فأعجبه ما سمع من حسن غنائها وجودة تأليفها، فحسن موقع ذلك منه؛ فوجّه الى جارية له، كانت تطلب الغناء، أن تأتي جميلة، وتأخذ الصوت منها، فطارحتها إياه أياماً حتى حذقت ومهرت به. فلما رأى ذلك عمر قال: أرى أن تخرجي الى سبيعة وتغنيها هذا الصوت وتبليغها رسالتي.

قالت: نعم! جعلني الله فداك.

فأتتها، فرحبت بها، وأعلمتها الرسالة، فحيت

وأكرمت، ثم غنتها فكادت تموت فرحاً وسروراً لحسن الغناء والشعر.

ثم عادت رسول عمر؛ فأعلمته ما كان، وقالت له: إنها خارجة في تلك السنة.

فلما كان أوان الحج، استاذنت سبيعة أباها في الحج، فأبى عليها، وقال لها: قد حججت حجة الاسلام.

قالت له: تلك الحجة هي التي أسهرتني ليلي، وأطالت نهاري وتوقتني[1] الى أن أعود وأزور البيت والقبر، وإن أنت لم تأذن لي مت كمداً.

فلما رأى ذلك أبوها رق لها، وقال: ليس يسعني منعها لما رأى بها فإذن لها.

ووافى عمر المدينة ليعرف خبرها؛ فلما قدمت علم بذلك، وسألها أن تأتي منزل جميلة، وقد سبق اليها عمر، فأكرمتها جميلة، وسرت بمكانها. فقالت لها

---

١ ـ تاقه وإليه: اشتاق. وتاق الى الغاية: أسرع. وتتوق الى شيء: تشوق اليه

سبيعة: جعلني الله فداك! أقلقني وأسهرني صوتك بشعر عمر فيّ فأسمعيني إياه.

قالت جميلة: وعزازة لوجهك الجميل! فغنتها الصوت؛ فأغمي عليها ساعة حتى رش على وجهها الماء، وثاب اليها عقلها. ثم قالت: أعيدي علي؛ فأعادت الصوت مراراً في كل مرة يغشى عليها.

ثم خرجت الى مكة وخرج معها. فلما رجعت مرت بالمدينة وعمر معها؛ فأتت جميلة فقالت لها: أعيدي عليّ الصوت ففعلت؛ وأقامت عليه ثلاثاً تسألها أن تعيد الصوت فقالت لها جميلة: إني أريد أن أغنيك صوتاً فاسمعيه.

قالت: هاتيه يا سيدتي؛ فغنتها:

أبت المليحة أن تواصلني
وأظن أني زائر رمسي[1]
لا خير في الدنيا وزينتها
مالم توافق نفسها نفسي

---

١ ـ الرمس: القبر

لا صبــر لي عنهــا إذا حســـرت
كـــالبـــدر أو قـــرنٍ من الـشـمس

قالت سبيعة: لولا أن الأول-شعر عمر، لقدمت هذا على كل شيء سمعته.

فقال عمر: فإنه والله أحسن من ذلك؛ فأما الشعر فلا.

قالت جميلة: صدقت والله!

نبي بلا حجة*

حدث ثمامة بن أشرس قال: شهدت مجلساً للمأمون، وقد أتي برجل ادعى أنه ابراهيم الخليل[1]

---

* المسعودي - مروج الذهب ج٤ ص٢٥

١ - ابراهيم الخليل: رأس سلالة العبرانيين، ومثال للرجل الصالح المخلص لله في سفره الى كنعان واذعانه لأمر الله عندما طلب منه تقديم ابنه ضحية. وهو مؤسس اليهودية. وعده الله أرض كنعان لنسله من ابنه اسحاق الذي أنجبه في شيخوخته (تكوين١١-٢٥). أطلق عليه المسلمون خليل الله. ويعدونه جد العرب عن طريق ابنه اسماعيل، فهو عندهم أحد الأنبياء، والجد الأعلى لمحمد (ص) عبد قومه الأوثان، وكان أبوه ينحتها، فحاجهم في أمرها. ولما لم يمتثلوا كسرها. أوقدوا ناراً لإحراقه، ونجاه الله منها. عاش بعد نوح، رحل الى فلسطين، ثم تركها على أثر جدب حلّ بها الى مصر، وهنا أهدي جارية مصرية اسمها هاجر، أنجبت له اسماعيل، مما أثار غيرة زوجته سارة. فرحل بالإبن والأم الى مكة حيث بنى الكعبة. كان محمد (ص) يتحنف ويتعبد على ملته قبل الاسلام.

فقال له المأمون: ما سمعت بأجرأ على الله من هذا!

قلت: أن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في كلامه.

قال: شأنك وإياه.

قلت: يا هذا إن إبراهيم عليه السلام كانت له براهين.

قال: وما براهينه؟

قلت: أضرمت له النار وألقي فيها، فكانت برداً وسلاماً، فنحن نضرم لك ناراً، ونطرحك فيها، فإن كانت عليك برداً وسلاماً كما كانت عليه، آمنا بك وصدقناك.

قال: هات ما هو ألين عليّ من هذا.

قلت: فبراهين موسى عليه السلام.

قال: وما هي؟

قلت: ألقى العصا، فإذا هي حية تسعى تلقف ما يأفكون [١]، وضرب بها البحر فانفلق، وبياض يده من غير سوء.

---

١ ـ يأفكون: يكذبون. و «حديث الإفك»: الحديث الذي لا أصل صحيحاً له.

قال: هذا أصعب، ولكن هات ما هو ألين علي من هذا.

قلت : فبراهين عيسى عليه السلام.

قال: وما براهينه؟

قلت إحياء الموتى،

فقطع الكلام في براهين عيسى وقال: جئت بالطامة الكبرى، دعني من براهين هذا.

قلت، فلا بد من براهين.

قال: ما معي من هذا شيء. وقد قلت لجبريل إنكم توجهونني الى شياطين، فاعطوني حجة أذهب بها، وإلا لم أذهب.

فغضب جبريل عليه السلام عليَّ، وقال: جئت بالشر من ساعة، إذهب أولاً، فانظر ما يقول لك القوم.

فضحك المأمون وقال: هذا من الأنبياء التي تصلح للمنادمة

يا دار ميَّة بالعلياء*

قدم ابن جامع قدْمَة له من مكة على الرشيد، وكان ابن جامع حسن السمت كثير الصلاة، قد بان أثر السجود في جبهته، وكان يعتم بعمامة سوداء، على قلنسوة طويلة، ويلبس لباس الفقهاء، ويركب حماراً مريسياً[1]، في زي أهل الحجاز.

فبينا هو واقف على باب يحي بن خالد يلتمس الإذن عليه، إذا أقبل أبو يوسف القاضي، بأصحابه أهل القلانس؛ فلما هجم على الباب، نظر الى رجلٍ يقف الى جانبه ويحادثه، فوقعت عينه على ابن جامع، فرأى سمته وحلاوة هيئته؛ فجاء فوقف الى جانبه، ثم قال له: أمتع الله بك! توسمتُ فيك الحجازية والقرشية.

---

* الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ج٦ ص ٦٩

١ ـ المَرْس: السير الدائم. مَريس: من بلدان الصعيد. ومَريسي نسبة الى مريسة وهي قرية مشهورة بالحمير بمصر.

قال: أصبت!
قال: فمن أي قريش أنت!
قال: من بني سهم.
قال: فأي الحرمين منزلك؟
قال: مكة.
قال: ومن لقيت من فقهائهم؟
قال: سل عمن شئت.

ففاتحه الفقه والحديث، فوجد عنده ما أحبّ، فأعجب به؛ ونظر الناس إليهما، فقالوا: هذا القاضي أبو يوسف، قد أقبل على المغني - وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع!

فقال أصحابه: لو أخبرناه عنه! ثم قالوا: لا، لعله لا يعود الى مواقفته بعد اليوم، فلَمَ نَغُمّه!

فلما كان الاذن الثاني ليحي، غدا عليه الناس، وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلب ابن جامع فرآه،

فذهب فوقف الى جانبه، فحادثه طويلاً كما فعل في المرة الأولى، فلما انصرف قال له أصحابه: أيها القاضي؛ أتعرف هذا الذي تواقف وتحادث؟!

قال: نعم؛ رجل من قريش، من أهل مكة، من الفقهاء

قالوا: هذا ابن جامع المغني[1]

قال: إنا لله!

قالوا: إن الناس قد شهروك بمواقفته، وأنكروا ذلك من فعلك.

فلما كان الاذنُ الثالث، جاء أبو يوسف ونظر

---

١ ـ ابن جامع المغني: من أقطاب الغناء العربي. عاش في القرن الثاني للهجرة، في خلافة الهادي ثم في خلافة الرشيد، وهو من معاصري ابراهيم الموصلي والمنافسين له. أخذ الغناء عن سياط. وكان ذا صوت جهير مليح، بارعاً في صناعة الالحان وأدائها. وكان مع ذلك تقياً صالحاً مقبول الشهادة لكن يروى عنه أنه قال عن نفسه: «لولا أن القمار وحب الكلاب قد شغلاني لتركت المغنين بلا خبز». وقد سئل «برسوم» الزاجر بالناي في ذاك الوقت، عن ابن جامع وابراهيم الموصلي: أيهما أحسن غناءً؟ فقال: «ابراهيم كبستان فاكهة، فيه الحلو والمر، والذي لم ينضج، وأما ابن جامع. فكأنه زق عسل، أين تفتح فيه يخرج منه عسل حلو كله جيد».

اليه، فتنكبه، وعرف ابن جامع أنه قد أُنذر به، فجاء فوقف فسلم عليه، فردّ عليه السلام أبو يوسف، بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه به، ثم انحرف عنه.

فدنا منه إبن جامع، وعرف الناس القصة، وكان إبن جامع جهيراً، فرفع صوته، ثم قال: يا أبا يوسف؛ مالك تنحرف عني؟! أي شيء أنكرت؟ قالوا لك: إني إبن جامع المغني، فكرهت مواقفتي! أسألك عن مسألة، ثم اصنع ما شئت ـ ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون ـ فقال: يا أبا يوسف؛ لو أن أعرابياً جلفاً وقف بين يديك، فانشدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال:

يا دار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالفُ الأمد

أكنت ترى بذلك بأساً؟

قال: لا! قد روي عن النبي (ص) في الشعر قول وروي في الحديث.

قال ابن جامع: فإن قلت أنـا هكذا. . . ثم اندفع يتغنى فيه، حتى أتى عليه؛ ثم قال: يا أبـا يوسف، رأيتني زدت فيه أو نقصت منه؟

قال: عافاك الله أعفنا من ذلك؛ ثم قال: يا أبا يوسف؛ أنت صاحبُ فُتيا، ما زدته على أن حسنته بألفاظي، فحسن في السماع، ووصل الى القلب. ثم تنحى عنه ابن جامع.

ليس منهم إلا سيّد*

روي عن الكلبي أنه قال: كان كسرى يحفل بالعرب، ويستأنس بمشاهدتهم ويرغب في سماع محادثاتهم، ومفاخراتهم ومنافراتهم، ولم يدخر وسعاً إلّا بذله للحصول على ذلك.

ومما اتفق له أن النعمان بن المنذر(١)، كان بمجلسه يوماً فقال له: هل في العرب من قبيلة تشرف على قبيلة؟

قال: نعم!

قال: فبأي شيء؟

قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء،

* الهاشمي: السيد أحمد ـ جواهر الأدب ج١ ص٢٣٥

١ ـ النعمان بن المنذر: ملقب بـ «أبي قابوس». آخر ملوك بني لخم في الحيرة (٥٨٠ـ٦٠٢م)، كان مسيحياً وأخته هند راهبة. كان شاعره النابغة الذبياني. وكله هرمز ٤ ملك الفرس على حراسة الحدود بين فارس وبلاد الروم.

واتصل ذلك بمزية رابعة، فبيته أشرف بيت، واليه تنسب القبيلة، وبه تعلو على غيرها.

قال: أحضر من هذه صفتهم، فطلبهم النعمان فلم يصبهم إلا في آل حذيفة بن بدر، وآل ذي الجدين، وآل الأشعث بن قيس بن كندة؛ فأحضرهم في جملة عشائرهم، فعقد لهم كسرى مجلساً عاماً، حضره الحكام والعدول والأعيان. ثم قال: ليتكلم كل منكم بمآثر قومه وليصدق.

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً، وكان ألسن القوم فقال: قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم والفخر الأعظم.

فقيل له: لم ذاك يا أخا فزارة؟

قال: ألسنا الدعائم[1] التي لا ترام؟! والعز الذي لا يضام؟!

فقيل له: صدقت.

ثم قام شاعرهم فقال:

---

١ ـ الدعائم: الأركان

فـزارة بيت العـز، والعـزّ فيهـم
فـزارة بـدرٍ حسبُ بـدرٍ نضـالهـا[1]
لها العزة القعساء[2] والحسب الذي
بنـاه لبـدرٍ في القـديم رجـالهـا
فهيهات قد أعيا القرون التي مضت
مـآثـر بـدر مجـدهـا وفعـالهـا
وهـل أحـد إن مـدّ يومـاً بكفـه
الى الشمس في مجرى النجوم ينالها؟!
فـإن يصلحـوا يصلح لـذاك جميعنا
وإن يفسدوا يفسد على الناس حالها.

ثم قام الأشعث بن قيس فقال: لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر، ونقهر جمعها الأكبر، وأنا غياث اللزبات[3]، وبناة المكرمات.

فقيل له: لم يا أخا كندة؟

---

١ ـ النضال: المحاماة والدفاع.
٢ ـ القعساء: الرفيعة
٣ ـ اللزبات (بتسكين الزاي): الشدائد.

قال: لأنا ورثنا ملك كندة، فاستظللنا بأفيائه، وتقلدنا منكبه الأعظم؛ وتوسطنا بحبوحه[1] الأكرم.

ثم قام شاعرهم فقال:

إذا قست أبيات الرجال ببيتنا
وجدت له فضلاً على من يفاخر
فمن قال: كلا أو أتانا بخطة
ينافرنا[2] يوماً فنحن نخاطر[3]
تعالوا قفوا كي يعلم الناس أيُّنا
له الفضل فيها أورثته الأكابر.

ثم قام بسطام بن قيس، فقال: قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذي لا يزول، ومغرس عزها الذي لا يحول.

---

١ ـ تبحبح: تمكن في المقام والحلول. وتبحبح الدار: توسطها. وبحبوحة العيش: رغده وخياره.

٢ ـ نافر: فاخر في الحسب والنسب. يقال: «نافرته الى القاضي فنفرني عليه» أي حاكمته الى القاضي، فقضى لي عليه بالغلبة.

٣ ـ خاطره على كذا: راهنه.

فقيل له: ولِمَ يا أخا شيبان؟!

قال: لأنا أدركهم للثّار، وأضربهم للملك الجبار، وأقولهم للحق، وألدّهم للخصم.

ثم قام شاعرهم فقال:

لعمري بسطام أحق بفضلها
وأول بيت العز عز القبائل
فسائل أبيت اللعن عن عز قومها
إذا جدَّ يوم الفخر كل **مناضل**[1]
فيخبرك الأقوام عنها فإنها
وقائع جدٍّ لا ملاعبُ هازل
ألسنا أعز الناس قوماً وأسرة
وأضربهم للكبش يوم التخاذل
وقائع عز كلها رَبَعِية[2]
تذل لها فيها رقاب المحافل
إذا ذُكرت لم ينكر الناس فضلها
وعاذ بها، من شرها، كل قاتل

---

١ ـ المناضل: المجادل

٢ ـ رَبَعِية: نسبة الى قبيلة ربيعة.

وإنـــا ملوك النـــاس في كـــل بلدة
إذا نـزلت بالنـاس إحـدى النـوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي، فقال: قد علمت العرب أنا فرع دعاتها، وقادة زحوفها.

فقيل له: لمَ ذلك يا أخا بني تميم؟!

قال: لأنا أكثر الناس عـديداً، وأنجبهم طـراً وليدا، وأعطاهم للجزيل، وأحملهم للثقيل.

ثم قام شاعرهم فقال:

لقــد علمت أبنــاء خنــدف أننــا
لنا العز قـدماً في الخـطوب الأوائل
وأنـــا كـــرام أهـــلُ مجـــدٍ وثـــروةٍ
وعـــز قـــديـم ليس بـــالمتضـــائـــل
فكم فيهم من سيـــد وابن سيـــد
أغـــر نجيـب ذي فعـــال ونـــائـــل
فســائـل **أبيت اللعن**[1] عنـا فـاننـا
دعـائم هذا النـاس عنـد الجـلائـل

---

١ ـ أبيت اللعن: أي أنك لا تفعل ما يوجب لعنك، بل تفعل ما تحمد وتمدح به.

ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرمات ، واثبتهم في النائبات .

فقيل له: لم ذاك يا أخا بني سعد؟!

قال: لأنا أدركهم للثأر، وأمنعهم للجار، لا نثكل إذا حملنا، ولا نرام إذا حللنا.

ثم قام شاعرهم فقال:

لقد علمت قيس وخندف أننا
وجلُّ تميم والجموع التي ترى
بأنا ليوث البأس في كل مأزقٍ
إذا جزّ بالبيض الجماجم والطلُّ[1]
وأنّا إذا داعٍ دعانا لنجدة
أجبنا سراعاً في العلائم من دعا
فهيهات قد أعيا الجميع فعالهم
وقاموا بيوم الفخر مسعاة من سعى

---

١ ـ الطُّلى: الأعناق.

فقال كسرى حينئذٍ: ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه، ثم أعظم صلاتهم أجمعين، وردّهم الى أقوامهم معظّمين.

في مجلس المأمون*

ذكر ثمامة بن أشرس قال: كنا يوماً في مجلس المأمون، فدخل يحي بن أكثم[1] - وكان قد ثقل عليه موضعي منه - فتذاكرنا شيئاً من الفقه، فقال يحي في مسألة دارت: هذا قول عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عمر وجابر.

قلت: أخطأوا كلهم، وغفلوا وجه الدلالة.

فاستعظم مني ذلك يحي وأكبره، وقال: يا أمير المؤمنين إنّ هذا يُخطّىء أصحاب رسول الله (ص) كلهم.

فقال المأمون: سبحانَ الله!!! أكذا يا ثمامة؟!

---

* المسعودي - مروج الذهب ج٤ ص٨

١ - يحي بن أكثم (٧٧٠ - ٨٥٧م). فقيه وأديب. ولي قضاء البصرة وعمره ٢٠ سنة. قاضي قضاة بغداد على أيام المأمون. عزله المتوكل. توفي في الربذة بعد رجوعه من الحج. له كتب في الفقه.

قلت: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يبالي ما قال ولا ما شنع به، ثم أقبلت عليه فقلت: ألست تزعم أن الحق في واحدٍ عند الله عز وجل؟

قال نعم!

قلت: فزعمت أن تسعة أخطأوا، وأصاب العاشر؛ وقلت أنا: أخطأ العاشر، فما أنكرت؟

قال: فنظر المأمون الي وتبسم، وقال: لم يعلم أبو محمد أنك تجيب بهذا الجواب.

قال يحى: وكيف ذلك؟

قلت: ألست تقول إن الحق في واحد؟

قال: بلى!

قلت: فهل يخلي الله عز وجل هذا الحق من قائل يقول به من أصحاب رسول الله (ص)؟

قال: لا!

قلت: أفليس من يخالفه ولم يقل به، فقد أخطأ عندك الحق؟

قال: نعم!

قلت: فقد دخلت فيها عبت، وقلت بما أنكرت

ويه شنعت، وأنا أوضح دلالة منك، لأني خطأتهم بالظاهرة، وكل مصيب عند الله الحق، وإنما خطأتهم عند الخلاف، وأدتني الدلالة الى قول بعضهم، فخطأت من خالفني، وأنت خطأت من خالفك في الظاهر وعند الله عز وجل.

قل للكرام ببابنا يلجوا*

عن إبن الكلبي والهيثم بن عدي، قالا: بينا عبد الله ¹ بن جعفر، في بعض أزقة المدينة، إذ سمع غناءً فأصغى اليه، فإذا بصوت شجي رقيق لقينة تغني:

قل للكرام ببابنا يلجوا
ما في التصابي على الفتى حرج

---

* إبن عبد ربه ـ العقد الفريد ج٧ ص١٧ / الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ج٥ ص٢٥

١ ـ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: ولد في الحبشة، وهو إبن أخ الامام علي (ع). جاء مع أبيه الى المدينة. لقب بـ «بحر الجود» لكرمه ويقال: أنه لم يكن في المسلمين أجود منه. وهو آخر من رأى النبي (ص) من بني هاشم. توفي سنة ٨٠ هـ

فنزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن.

فلما رأوه قاموا اليه إجلالاً، ورفعوا مجلسه؛ ثم أقبل صاحب المنزل فقال: يـا بن عم رسول الله، دخلت منزلنا بلا إذن، وما كنت لهذا بخليق!

فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن!

قال: ومن أذن لك؟

قال: قينتك هذه؛ سمعتها تقول:

قل للكرام ببابنا يلجوا...

فولجنا، فإن كنا كراماً، فقد أذن لنا، وإن كنا لئاماً خرجنا مذمومين!

فضحك صاحب المنزل وقال: جُعلت فداك! ما أنت إلا من أكرم الأكرمين.

ثم بعث عبد الله الى جارية من جواريه، فقال لها: غني، فغنت، فطرب القوم، وطرب عبد الله، فدعا بثياب وطيب، فكسا القوم وصاحب المنـزل، وطيبهم ووهب له الجارية وقال له: هذه أحذق بالغناء من جاريتك.

أرق ما قيل في الغواني*

اجتمع، عمر بن أبي ربيعة، وكثير عزة، وجميل بن معمر، بباب عبد الملك بن مروان فأذن لهم فدخلوا، فقال: أنشدوني أرق ما قلتم في الغواني.

فانشده جميل بن معمر:

حلفت يميناً يا بثينة صادقاً
فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إن كان جلد غير جلدك مسني
وباشرني دون الشعار شريت(١)
ولو أن راقي الموت يرقى جنازتي
بمنطقها في الناطقين حييت

---

* القالي: أبو علي - ذيل الأمالي ص٦٦

١ - شرى جلده: خرج عليه الشرى. والشرى: بثور صغار حمر، حكاكة مكربة، تحدث دفعة واحدة غالباً وتشتد ليلاً لبخار حار، يثور في البدن دفعة واحدة.

وأنشد كثير عزة:

بـأبي وأمـي أنـت مـن مظلـومـة
طَبِن[1] العـدو لهـا فغـير حـالهـا
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى
في الحسن عند موفق لقضى لها.
وسعى الي بصـرم عـزة نسـوة
جعـل المليـك خـدودهن نعـالهـا.

وانشد ابن أبي ربيعة المخزومي:

ألا ليت قبـري يوم تقضي منيتي
بتلك التي من بـين عينيـك والفم
وليت طهـوري كـان ريقـك كله
وليت حنـوطي من مشاشك والـدم
ألا ليت أم الفضـل كـانت قـرينتي
هنـا أو هنـا في جنـة أو جهـنم

فقال عبد الملك لحاجبه: اعط كل واحد منهم ألفين، واعط صاحب جهنم عشرة آلاف.

---

١ ـ طَبِن: فَطِن.

ما يعيش من يحتشم*

قال أبو عكرمة: خرجت يوماً الى المسجد الجامع، ومعي قرطاس لأكتب فيه بعض ما أستفيده من العلماء، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل، فإذا ببابه المسدود، وكان أحذق الناس بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟

قلت: الى المسجد الجامع، لعلي أستفيد فيه حكمة أكتبها.

فقال: أدخل بنا على أبي عيسى.

قال: فقلت: مثل أبي عيسى في قدره وجلالته، يُدخل عليه بغير إذن؟!

قال: فقال للحاجب: أعلم الأمير بمكان أبي عكرمة.

قال: فما لبثت إلا ساعة حتى خرج الغلمان

* ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج٧ ص٢٤

فحملوني حملاً، فدخلت الى دار لا والله ما رأيت أحسن منها بناءً، ولا أظرف فرشاً؛ ولا صباحة وجوه؛ فحين دخلنا نظرت الى أبي عيسى، فلما أبصرني قال لي: ما يعيش من يحتشم! اجلس، فجلست، فقال: ما هذا القرطاس بيدك؟

قلت: يا سيدي، حملته لاستفيد فيه شيئاً، وأرجو أن أدرك حاجتي في هذا المجلس، فمكثنا حيناً، ثم اتينا بطعام ما رأيت اكثر منه ولا أحسن، فأكلنا؛ وحانت مني التفاتة، فاذا أنا بزنين ودبيس؛ وهما أحذق الناس بالغناء. قال: فقلت: هذا مجلس قد جمع الله فيه كل شيء مليح. قال: ورفع الطعام، وجيء بالشراب، وقامت جارية تسقينا شراباً ما رأيت أحسن منه، في كل كأس لا أقدر على وصفها. وقد جلس المسدود وزنين ودبيس، ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ المسدود فغنى:

لما استقل بارداف تجاذبه
واخضرّ فوق حجاب الدر شاربه

وتم في الحسن والتامت محاسنه
ومازجت بتدعاً فيه غرائبه
وأشرق الورد في نسرين وجنته
واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة
فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت فغنى زنين:

الحبّ حلو أُمرّته عواقبه
وصاحب الحبّ صبّ القلب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودّعني
يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعي الشوق يهتف بي
أرفق بقلبك قد عزّت مطالبه

ثم سكت فغنى دبيس:

بدرٌ من الانس حفّته كواكبه
قد لاح عارضه واخضرَّ شاربه

إن يـوعد الـوعد يـوماً فهـو مخلفـه
أو ينـطق القول يـومـاً فهـو كـاذبـه
عـاطيتـه كـدم الأوداج صـافيـة
فقـام يشـدو وقـد مـالت جـوانبـه.

قال أبو عكرمة: فعجبت انهم غنوا بلحن واحد وقافية واحدة:

قال أبو عيسى: يعجبك من هذا شيء يا أبا عكرمة؟

فقلت: يا سيدي المنى دون هذا!

ثم أن القوم غنوا على هذا الى انقضاء المجلس: إذا ابتدأ المسدود تبعه الرجلان بمثل ما غنى. فكان مما غنى المسدود:

بـاحـوِرار الـعـين والـدعـج[1]
واحمـرار الخـدّ في الـضـرَّج[2]

---

١ ـ الحور: اتساع سود العين. والدعج: شدة سواد العين مع سعة المقلة.

٢ ـ تضرَّج الخد: احمارّ. الضريج: المصبوغ بـالحمرة دون المشبع وفوق المورد.

ويـتـفـاح الخـدود ومـا
ضـمَّ مـن مـسـكٍ ومـن أرج
كـن رقـيـق الـقـلب إنـك مِـن
قـتْـل مـن يهـواك في حـرج

ثم سكت وغنى زنين:

كـسـروي الـتـيـه مـعـتـدل
هـاشـمـي الـدَّلّ والـغـنـج
ولـه صـدغـان قـد عـطفـا
بـبـيـاض الخـدِّ كـالـسَّـبـج[1]
وإذا مـا افـترَّ مـبـتـسـماً
أطـلق الأسـرى مـن المُـهـج
مـا لمـا بي مـنـك مـن فـرج
لا ابـتـلاني الله بـالـفـرج

ثم سكت وغنى دبيس:

---

١ ـ السبج: الخرز الأسود

تـعـمـل الأجـفـان بـالـدعـج
عـمـل الـصـهـبـاء[1] بـالـمـهـج
بـأبي ظـبـي كـلـفـت بـه
واضـح الخـديـن والـفـلـج[2].
قـلـت قـلـبـي قـد فـتـكـت بـه
قـال مـا في الـديـن من حـرج

ثم سكت وغنى المسدود:

شـقـقـتُ جـيـبـي عـلـيـك شـقـا
ومـا لجـيـبـي أردتُ شـقـا
أردتُ قـلـبـي فـصـادفـتـه
يـداي بـالجـيـب قـد تـوقـى
مـالـك رقـي، أبـيـت عـتـقـي
لـولاك مـا كـنـت مـسـتـرقـا

---

١ ـ الصهباء: الخمر، سميت بذلك للونها. والأصهب: الذي يخالط بياضه حمرة.
٢ ـ انفلج الصُبح: انبلج. الفلج: الصبح. المفلجة من الأسنان: المنفرجة.

ثم سكت وغنى زنين

قـد ذبت شـوقـاً ومتُّ عشـقـا
يـا زفـرات المـحـب رفـقـا
ثـكلتُ نـفسـي وزرت رمسـي[1]
إن كـنـت لـلهـجـر مسـتـحـقـا

ثم سكت وغنى دبيس:

ظـمئت شـوقـاً وبـحـر عـشقـي
يـفـيض عـذبـاً ولسـتُ أُسـقـى
أنـا الـذي صـرت مـن غـرامي
عـلى فـراش الـسـقـام مـلقـى
فـمـن زفـير ومـن شـهـيـق
ومـن دمـوع تجـود سـبـقـا

قال أبو عكرمة: فو الله الذي لا اله الا هو. لقد

---

١ ـ الرمس: القبر.

حضرت من المجالس مالا أحصي، فما رأيت مثل ذلك اليوم.

ثم إن أبا عيسى أمر لكل واحد بجائزة وانصرفنا؛ ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

إن الجميل للجميل يصلح*

حدَّث سياط باحاديث جميلة فقال: بنفسي هي وأمي، فما كان أحسن وجهها، وخلقها وغناءها، ما خلقت للنساء مثلها شبيهاً ثم قال: جلست جميلة يوماً للوفادة عليها، وجعلت على رؤوس جواريها شعوراً مسدلة كالعناقيد الى اعجازهن، والبستهن انواع الثياب المصبغة، ووضعت فوق الشعور التيجان، وزينتهن بأنواع الحلى، ووجهت الى عبد الله بن جعفر تستزيره، وقالت للكاتب أملت عليه: «بأبي أنت وأمي! قدرك يجل عن رسالتي، وكرمك يحتمل زلتي، وذنبي لا تقال عثرته، ولا تغفر حوبته[1]، فإن صفحت فالصفح لكم معشر أهل البيت يؤثر، والخير والفضل كله فيكم مُدَّخر، ونحن العبيد وأنتم

---

* الأصفهاني: ابو الفرج ـ الأغاني ج٧ ص١٤٤

١ ـ الحوبة: الإثم.

الموالي، فطوبى لمن كان لكم مجاوراً، وبعزكم قاهراً، وبضيائكم مبصراً، والويل لمن جهل قدركم، ولم يعرف ما أوجبه الله على هذا الخلق لكم، فصغيركم كبير، بل لا صغير فيكم، وكبيركم جليل، بل الجلالة التي وهبها الله عز وجل للخلق هي لكم، ومقصورة عليكم، وبالكتاب نسألك، وبحق الرسول (ص) ندعوك، إن كنت نشيطاً لمجلس هيأته لك، لا يحسن إلا بك، ولا يتم إلا معك، ولا يصلح أن ينقل عن موضعه، ولا يسلك به عن طريقه »

فلما قرأ عبد الله الكتاب قال: إنا لنعرف تعظيمها لنا، وإكرامها لصغيرنا وكبيرنا، وقد علمت أنها قد آلت أليّة[1]، ألا تغني أحداً إلا في منزلها، وقال للرسول: والله قد كنت على الركوب الى موضع كذا، وكان في عزمي المرور بها. فأما إذا وافق ذلك مرادها، فإني جاعل بعد رجوعي طريقي عليها.

فلما صارا الى بابها، أدخل بعض من كان معه اليها وصرف بعضهم فنظر الى ذلك الحسن البارع،

---

١ ـ آلت: حلفت. يقال: « آليت أفعل كذا » أي لا أفعل بحذف لا بعد القسم.

والهيئة **الباذَّة**[1] فأعجبه ووقع من نفسه؛ فقال: يا جميلة؛ لقد أوتيت خيراً كثيرا! ما أحسن ما صنعت!

فقالت: يا سيدي، إن الجميل للجميل يصلح، ولك هيأت هذا المجلس.

فجلس عبد الله بن جعفر وقامت على رأسه، وقامت الجواري صفين؛ فأقسم عليها فجلست غير بعيد، ثم قالت: يا سيدي؛ ألا أغنيك؟

قال: بلى!

فغنت:

بني شيبة الحمد[2] الذي كان وجهه
يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

---

١ ـ البذّ: المثل. يقال: «رجلٍ فذّ بذّ» أي فرد

٢ ـ شيبة الحمد: هو عبد المطلب بن هاشم جد الرسول (ص) وكفيله بعد موت أبيه عبد الله. ولد بالمدينة في بيت بني النضير عشيرة أمه. ثم انتقل الى مكة واصبح شيخ قريش. شهد غزو أبرهة للكعبة، وذهب اليه محتجاً فأكبره. أنجب عشرة أولاد منهم: أبو طالب وابو لهب والحمزة والعباس وعبد الله. تولى الرفادة وسقاية الحجاج بعد عمه. =

كهــولهم خــير الكهــول ونــسلهــم
كنسل الملوك لا يبور ولا يحـري[٣]
ابــو عتبــة الملقي اليــك جمــالــه
اغــرّ هجـان اللون من نفــر زهــر
لســاقي الحجيـج ثم للخـير هــاشم
وعبـد منـاف ذلـك السيـد الغمــر
أبــوكم قُصيٌّ كـان يــدعي مُجمعـاً
بــه جمّع الله القبــائــل من فهــر

فقال عبد الله: أحسنت يا جميلة! بالله أعيديه علي فأعادته، فجاء الصوت أحسن من الإرتجال. ثم دعت لكل جارية بعود، وأمرتهن بالجلوس على كراسي صغار، قد أعدتها لهن، فضربن، وغنت عليهن هذا الصوت، وغنى جواريها على غنائها.

فلما ضربن جميعاً قال عبد الله: ما ظننت أن مثل هذا يكون! وانه لمما يفتن القلب!

= وأعاد حفر بئر زمزم. سمى النبي محمداً وتوفى ومحمد في الثامنة.

١ ـ حرى الشيء: نقص.

ثم دعا ببغلته فركبها وانصرف الى منزله ـ وقد كانت جميلة أعدت طعـاماً كثيـراً ـ فقال لأصحـابه: تخلفوا للغداء، فتغدوا وانصرفوا مسرورين.

ابن أبي دؤاد عند المعتصم*

ذكر أن المعتصم(١) كان بالجوسق يوماً مع ندمائه وقد عزم على **الاصطباح**(٢) وأمر كل واحد منهم ان يطبخ قدراً - إذ بصر بسلامة غلام إبن أبي دؤاد، فقال: هذا غلام ابن أبي دؤاد يتعرف خبرنا، والساعة يأتي فيقول: فلان الهاشمي، وفلان القرشي، وفلان الانصاري، وفلان العربي؛ فيعطلنا بحوائجه عما عزمنا عليه، وأنا أشهدكم أني لا أقضي اليوم له

---

* المسعودي - مروج الذهب ج٤ ص٩٧

١ - المعتصم بالله: محمَد بن هارون الرشيد (٧٩٥-٨٤٢م) الخليفة العباسي الثامن بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٨٣٣. مال الى مذهب المعتزلة. أخذ زبطرة وعمورية من الروم حط من شأن العرب معتمداً على المماليك، ونقل عاصمته الى سامراء، فسبب انحطاط الدولة العباسية.

٢ - اصطبح الرجل: تناول الصبوح. والصبوح: كل ما أُكل أو شرب صباحاً.

حاجة، فلم يكن بين قوله وبين استئذان أبي عبد الله إلا هنيهة، فقال لجلسائه: كيف ترون قولي؟

قالوا: لا تأذن له.

قال: سوءاً لكم، حُمّىً سنة أهونُ عليَّ من ذلك! ودخل، فما هو إلا أن سلَّم وجلس وتكلم، حتى أسفر وجه المعتصم، وضحكت اليه جوارحه، ثم قال له: يا أبا عبد الله،، قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدراً، وقد جعلناك حكماً في طبخها.

قال: فلتحضر، ثم آكل، ثم أحكم بحكم بعلم.

فحملت اليه القدور، ووضعت بين يديه، فجعل يأكل من أول قدرٍ أكلًا تاماً، فقال له المعتصم: هذا ظلم.

قال: وكيف ذلك؟

قال: لأني أراك قد أمعنت في هذا اللون، وتحكم لصاحبه

قال: يا أمير المؤمنين، عليَّ أن آكل من هذه القدور كلها، كما أكلت من هذا القدر.

فتبسم له المعتصم، وقال له: شأنك إذا.

فأكل كما قال، ثم قال: أما هذه فقد أحسن طابخها، إذ أكثر فلفلها وأقل كمونها؛ وأما هذه فقد أجاد طابخها، إذ أكثر خلّها وأقل زيتها؛ وأما هذه فقد طيبها طابخها، باعتدال توابلها؛ وأما هذه فقد حذق من عملها، بقلة مائها وكثرة مرقها؛ حتى وصف القدور كلها، بصفات سُرَّ أهلها بها، ثم أكل مع القوم كما أكلوا، أنظف أكلٍ وأحسنه، مرة يحدثهم بأخبار الأكلة في صدر الاسلام: معاوية بن ابي سفيان، وعبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وسليمان بن عبد الملك؛ ومرة يحدثهم عن أكلة دهره، مثل ميسرة الثمار، ودورق القصاب، وحاتم الكيال، واسحاق الحمامي.

فلما رفعت المواثد قال له المعتصم: ألك حاجة يا أبا عبد الله؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين

قال: اذكرها فإن أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، رجل من أهلك وطئه الدهر فعير حاله، وخشن معيشته.

قال: ومن هو؟

قال: سليمان بن عبد الله النوفلي.

قال: قدّر له ما يصلحه.

قال: خمسين ألف درهم.

قال: أنفذت ذلك له.

قال: وحاجة اخرى.

قال: وما هي؟

قال: ضياع ابراهيم بن المعتمر تردها له.

قال: قد فعلت.

قال: وحاجة اخرى.

قال: قد فعلت

قال: والله ما خرج حتى سأل ثلاث عشرة حاجة، لا يرده عن شيء منها، حتى قام خطيباً، فقال في خطبته:

يا أمير المؤمنين، عمرك الله طويلاً، فبعمرك تخصب جنات رعيتك، ويلين عيشهم، وتثمر أموالهم، ولا زلت ممتعاً بالسلامة، محبواً بالكرامة، مرفوعاً عنك حوادث الأيام وغيرها[1]، ثم انصرف.

---

١ ـ غيرَ الدهر: أحداثه.

فقال المعتصم: هذا والله يتزين بمثله، ويبتهج بقربه، ويعدل ألوفاً من جنسه، أما رأيتم كيف دخل؟ وكيف سلم؟ وكيف تكلم؟ وكيف وصف القدور، ثم انبسط في الحديث؟ وكيف طاب به أكلنا؟ ما يردّ هذا عن حاجة، إلا لئيم الأصل خبيث الفرع، والله لو سألني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف درهم، ما رددته عنها، وأنا اعلم انه يكسبني بها في الدنيا حمداً، وفي الآخرة ثوابا.

وفي أحمد بن أبي دؤاد يقول الطائي:

لقد أنست مساوي كل دهرٍ
محاسن أحمد بن أبي دؤاد
فما سافرت في الآفاق إلا
ومن جدواه راحلتي وزادي
مقيم الظن عندك والأماني
وإن قلقت ركابي في البلاد.

وفاء جميل*

عن جعفر بن قدامة قال:

كان مالك بن ابي السمح المغني من طيء، فاصابتهم حَطْمَة[1] في بلادهم بالجبلين، فقدمت به أمه، وبأخوة له واخوات أيتام لا شيء لهم، فكان يسأل الناس على باب حمزة بن الزبير ـ وكان معبد منقطعاً الى حمزة يكون عنده في كل يوم يغنيه ـ فسمع مالكٌ غناءه، فأعجبه واشتهاه.

فكان لا يفارق باب حمزة يسمع غناء معبد الى الليل، فلا يطوف بالمدينة، ولا يطلب من أحدٍ شيئا، ولا يريم[2] موضعه، فينصرف الى أمه، ولم يكتسب

---

* الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ج٤ ص١٦٨/ النويري ـ نهاية الأرب ج٤ ص٢٨١

١ ـ الحَطْمة، والحُطْمة: السنة الشديدة لأنها تحطم كل شيء.

٢ ـ رام المكان ومنه: زال عنه وفارقه. يقال: «ما رام يفعل كذا» أي ما زال.

شيئا فتضربه، وهو مع ذلك يترنم بألحان معبد، يؤديها دوراً دوراً، في مواضع صيحاته و**إسجاحاته**[1] ونبراته، نغماً بغير لفظ ولا رواية شيء من الشعر؛ وجعل حمزة كلما غدا وراح، رآه ملازماً لبابه، فقال لغلامه يوماً: أدخل هذا الغلام الأعرابي اليَّ؛ فأدخله. فقال له: من أنت؟

فقال: أنا غلام من طيء أصابتنا حطمة بالجبلين، فحطمتنا اليكم، ومعي أمّ لي وإخوة، وإني قد لزمت بابك، فسمعت من دارك صوتاً أعجبني؛ فلزمت بابك من أجله.

قال: فهل تعرف منه شيئاً؟

قال: أعرف لحنه كله ولا أعرف الشعر.

فقال: إن كنت صادقاً، فإنك لَفَهِم.

ودعا بمعبد، فأمره أن يغني صوتاً فغناه، ثم قال لمالك: هل تستطيع أن تقوله؟

---

١ ـ سجحت الحمامة: سجعت، أي هدرت ورددت صوتها. وأسجح الرجل: سهل كلامه ولطفه. يقال: « إذا سألت فاسجح » أي سهل ألفاظك وأرفق. ويقال: « رجل سُجُح » أي حسن الخلق.

قال: نعم!

قال: هاته

فاندفع فغناه، فأدى نغمه بغير شعر، يؤدي مداته ولياته، وعطفاته ونبراته وتعليقاته، لا يخرم حرفاً.

فقال لمعبد: خذ هذا الغلام إليك، وخرجه فيلكونن له شأن.

قال معبد: ولم أفعل ذلك؟

قال: لتكونن محاسنه منسوبة اليك.

فقال: صدق الأمير، وأنا افعل ما أمرتني به.

ثم قال حمزة لك: كيف وجدت ملازمتك لبابنا؟

قال: أرأيت لو قلت فيك غير الذي أنت له مستحق من الباطل أكنت ترضى بذلك؟

قال: لا!

قال: وكذلك لا يسرك أن تحمد بما لم تفعل.

قال: نعم!

قال: فو الله ما شبعت على بابك شبعة قط، ولا انقلبت منه الى أهلي بخير.

فأمر له ولأمه ولأخوته بمنزل، وأجرى لهم رزقاً وكسوة، وأمر لهم بخادم يخدمهم، وعبد يسقيهم الماء، وأجلس مالكاً معه في مجالسه، وامر معبداً أنْ يطارحه، فلم ينشِب[1] أن مَهَر وحَذَق، وكان ذلك بعقب مقتل هدبة بن خشرم بشعر أخي زيادة:

أبعد الذي بالنعف[2] نعفِ كويكبٍ
رهينة رمس ذي تراب وجندل[3]
أذكَّر بالبقيا على من أصابني
وبقياي أني غير مؤتلي[4]
فلا يدعني قومي لزيد بن مالك
لئن لم أعجل ضربة أو أعجل
وإلا أنل ثأري من اليوم أو غدٍ
بني عمنا فالدهر ذو متسطول

---

١ ـ نشِب في الشيء: علق. يقال: «نَشِب فلان فنشب سوء» أي وقع في ما لا مخلص منه. و «ما نشبت أفعل كذا» أي ما علقت. وقيل: «لم ينشب أن مات» أي لم يلبث.

٢ ـ النعف: المكان المرتفع في اعتراض.

٣ ـ الجندل ج جنادل: الصخر العظيم.

٤ ـ أثل الرجل يأثل أثولاً: إذا قارب الخطو في غضب.

أنختم علينـا كلكل[1] الحـرب مـرَّة
فنحن منيخـوهـا عليكم بكـلكـل

فغنى في هذا الشعر لحنين: أحدهما نحا فيه نحو المرأة في نوحهـا ، ورققه وأصلحه، وزاد فيه، والآخر نحا فيه نحو معبد في غنائه.

ثم دخل على حمزة فقال له: أيها الأمير؛ إني قد صنعت غناء في شعر، سمعت بعض أهل المدينـة ينشده، وقد أعجبني، فإن أذن الأمير غنيته فيه.

قال: هاته.

فغناه اللحن الذي نحا فيه نحومعبد؛ فـطرب حمزة، وقال له: أحسنت يا غلام، هذا الغناء غناء معبد وطريقته.

فقال: لا تعجل أيها الأمير، واسمع مني شيئاً، ليس من غناء معبد ولا طريقته.

---

١ ـ الكلكل: الصدر أو ما بين الترقوتين. وهنا جعل للحرب كلكلا.

فغناه اللحن الذي تشبه فيه بنوح المرأة؛ فطرب حمزة حتى القى عليه حلة كانت عليه، قيمتها مائة دينار.

ودخل معبد فرأى حلة حمزة عليه، فأنكرها، وعلم حمزة بذلك، فأخبر معبداً بالسبب، وأمر مالكاً فغناه الصوتين، فغضب معبد لما سمع الصوت الأول، وقال: قد كرهت أن آخذ هذا الغلام، فيتعلم غنائي فيدعيه لنفسه.

فقال له حمزة: لا تعجل واسمع غناءً صنعه، ليس من شأنك ولا غنائك، وأمره أن يغني الصوت الآخر، فغناه فأطرق معبد، فقال له حمزة: والله لو انفرد بهذا لضاهاك، ثم يتزايد على الأيام، وكلما كبر وزاد شخت أنت ونقصت، فلأن يكون منسوباً اليك أجمل.

فقال له معبد ـ وهو منكر ـ : صدق الأمير، ثم أمر حمزة لمعبد، بخلعة من ثيابه، وجائزة حتى سكن وطابت نفسه؛ فقام مالك فقبل رأس معبد، وقال له: يا أبا عباد؛ أساءك ما سمعت مني؟ والله لا أغني لنفسي شيئاً أبداً ما دمت حيا، وإن غلبتني نفسي

فغنيت في شعر استحسنته ، لا نسبته الا الي فطب نفساً وارض عني .

فقال له معبد: أو تفعل هذا وتفي به؟

قال: إي والله وأزيد.

فكان مالك بعد ذلك إذا غنى صوتاً وسئل قال: هذا لمعبد، ما غنيت لنفسي شيئاً قط، آخذ غناء معبد، فأنقله الى الأشعار، وأحسنه فيه وأنقص منه.

هكذا تدرك الحاجة*

دخل أبو دلامة يوماً على المهدي فانشده قصيدة فقال له: سلني حاجتك.

فقال: يا أمير المؤمنين تهب لي كلباً.

فغضب المهدي وقال: أقول لك: سلني حاجتك، فتقول: تهب لي كلباً!؟

فقال: يا أمير المؤمنين، الحاجة لي أم لك؟

قال: لا بل لك.

قال: فاني أسألك أن تهب لي كلب صيد.

فأمر له بكلب.

---

* إبن الجوزي ـ أخبار الأذكياء ص١٠٩/ إبن عبد ربه العقد الفريد ج١ ص١٨٠/ إبن قتيبة ـ عيون الأخبار ج٣ ص ١٢٨/ الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٩٦/ النويري ـ نهاية الأرب ج٤ ص ٣٧/ الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ج ٩ ص١٢١.

فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت الى الصيد، أعدو على رجلي؟

فأمر له بدابة.

فقال: يا أمير المؤمنين، فمن يقوم عليها؟
فأمر له بغلام.
فقال: يا أمير المؤمنين، فهبني صدت صيداً وأتيت به المنزل، ممن يطبخه؟

فأمر له بجارية.
فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أين يبيتون؟
فأمر له بدار.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد صيرت في عنقي كفاً من عيال[1]، فأين ما يتقوت به هؤلاء؟

فقال: فإن أمير المؤمنين قد أقطعك ألف جريب[2] عامراً، والف جريب غامراً.

فقال: أما العامر فقد عرفته، فما الغامر؟

---

١ ـ كفاً: أي جمعاً.
٢ ـ الجريب: المزرعة، أو قدر مخصوص من مساحة الأرض.

قال: الخراب الذي لا شيء فيه.

قال: أنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني أسد.

قال: قد جعلتها كلها لك عامرة.

قال: فيأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده؟

قال: أما هذه فدعها.

قال: والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها.

مجلس للواثق في الفلسفة والطب*

كان **الواثق بالله**[1] محباً للنظر، مكرماً لاهله، مبغضاً للتقليد وأهله، محباً للاشراف على علوم الناس وآرائهم، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة، وغيرهم من الشرعيين، فحضرهم ذات يوم جماعة من الفلاسفة والمتطببين، فجرى بحضرته أنواع من علومهم في الطبيعيات، وما بعد ذلك من الالهيات، فقال لهم الواثق: قد أحببت أن أعلم كيفية ادراك معرفة الطب ومأخذ أصوله، أذلك من الحس أم من القياس

---

* المسعودي - مروج الذهب ج٤ ص٧٧

١ - الواثق بالله: (٨٤١-٨٤٦) هو الخليفة العباسي أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم. كان أديباً شاعراً مطبوعاً على الغناء، ولم يكن أحد من الخلفاء أطيب منه صوتاً ولا أحكم صنعة.

قال اسحاق الموصلي: «ما كان في مجلس الواثق أحد اعلم منه بالغناء، وقد صنع أكثر من مائة صوت»

والسنة؟ أم يدرك بأوائل العقل؟ أم علم ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع، كما يذهب اليه جماعة من أهل الشريعة؟ وقد كان إبن بختيشوع[1] و ابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر، وقيل: إن حنين بن إسحاق وسلمويه فيمن حضر في هذا المجلس أيضاً.

---

١ ـ بختيشوع: أسرة نبغ من افرادها عدد من الأطباء. خدموا في بلاط العباسيين ثلاثة قرون، أولهم جورجيس بن بختيشوع، واشتغل بالتصنيف في الطب، ورأس بيمارستان جنديسابور، واستقدمه الخليفة المنصور سنة ٧٦٥م الى بغداد لمعالجته وجعله طبيباً له. خلفه ابنه بختيشوع في رياسة بيمارستان جنديسابور وكان يستقدم الى بغداد لعلاج الخليفة المهدي وأبنائه إبنه جبرائيل ـ وهو أشهرهم ـ عمل طبيباً خاصاً للرشيد، كما خدم الأمين والمأمون وجمع من صناعة الطب ثروة طائلة وخلفه إبنه بختيشوع فخدم المأمون والواثق والمتوكل، ثم عبيد الله بن بختيشوع، الذي لزم المقتدر. وتبعه إبنه جبرائيل بن عبيد الله، ثم عبيد الله بن جبرائيل، وهو الذي بقيت لنا مصنفاته الطبية. في حين ضاعت مصنفات أسلافه جميعاً. وأهم مصنفات عبيد الله: «تذكرة الحاضر وزاد المسافر» «وكتاب الخواص».

فقال منهم قائل: زعم طوائف من الأطباء وكثير من متقدميهم، أن الطريق الذي يدرك فيه الطب هو التجربة فقط، وحدّوه بأنه علم يتكرر الحسّ على محسوس واحد في أحوال متغايرة، فيوجد بالحس في آخر الأحوال كما يوجد في أولها، والحافظ لذلك هو المجرب، وزعموا أن التجربة ترجع الى مبادٍ أربعة، هن لها أوائل ومقدمات، وبها علمت وصحت، وإليها تنقسم التجربة، فصارت بذلك أجزاء لها، فزعموا أن قسماً من تلك الأقسام طبيعي، وهو ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض: من الرعاف، والعرق، والاسهال، والقيء التي تُعقبُ في المشاهدة منفعة أو ضرراً. وقسماً عرضياً، وهو ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل، وذلك كما يعرض للانسان أن يجرح أو يسقط، فيخرج منه دم قليل أو كثير، أو يشرب في مرضه أو صحته ماءً بارداً أو شراباً، فيعقب في المشاهدة منفعة أو ضرراً. وقسماً إرادياً، وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الانسان، وهو أن يرى كأنه عالج مريضاً به علة، مشاهدة معقولة بشيء من الأشياء معروف، فيبرأ ذلك المريض من مرضه، أو يخطر مثل

ذلك بباله في حال فكره، فيتردد ويعطب ظنه بعطبة، فيجربه بأن يفعله كما يرى في منامه، فيجده كما يرى أو يخالف ذلك ويفعله مراراً، فيجده كذلك. وقسماً هو نقل، وهو على ثلاثة أقسام: إما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه؛ وذلك كالنقلة من ورم الحمرة، الى الورم المعروف بالنملة، وإما من عضو الى عضو يشبهه، وذلك كالنقلة من العضد الى الفخذ، وإما من دواء الى دواء يشبهه؛ كالنقلة من السفرجل الى الزعرور، في علاج انطلاق البطن؛ وكل ذلك لا يعمل به عندهم إلا بالتجربة.

وذهبت طائفة أخرى منهم، الى أن الحيلة في تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها، أن تُردَّ أشخاص من العلل ومولداتها، الى الأصول الحاضرة الجامعة لها، إذ كان لا غاية لتولدها، وأن يستدل على الدواء، من نفس الطبيعة والمرض، الحاضر الموجود في الحال والوقت، دون الأسباب المؤثرة الفاعلة التي عدمت، ودون الأزمان والأوقات والأسباب والعادات، ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها، والرصد والتحفظ لكل ما يكون في كل علّة وجدت أو لم توجد، وبرهنوا بأن زعموا،

أن من المعلومات الظاهرة التي لا ريب فيها، أن الضدين لا يجوز اجتماعهما في حال، وأن وجود أحدهما ينفي وجود الآخر في الحال لا محالة، قالوا: وليس هذا كشيء ظاهر، يستدل به على كل شيء خفي، والشيء الظاهر يحتمل الوجود، فيختلف في الاستدلال، فيكون القطع على ما يوجبه غير بين، وهذا قول جماعة من حذاق المتطببين، وأهل التقدم في اليونانيين مثل نامونيس وساسالين وغيرهما، وهم قوم يعرفون بأصحاب الطب الجبلي.

قال الواثق لهم جميعاً: فأخبروني عن جمهورهم الأعظم، إلام يذهبون في ذلك؟

فقالوا: الى القياس.

قال: وكيف ذلك؟

قالوا جميعاً: زعمت هذه الطائفة، أن الطريق والقانون الى معرفة الطب، مأخوذ من مقدمات أولية، فمنها معرفة طبائع الأبدان والأعضاء وأفعالها، ومنها معرفة الأبدان في الصحة والمرض، ومعرفة الأهوية واختلافها، والأعمال والصنائع، والعادات، والأطعمة والأشربة والأسفار، ومعرفة قوى الأمراض. وقالوا:

ثبت في الشاهد أن الحيوان، يختلف في صورته وطباعه، وكذلك أعضاؤه مختلفة في طباعها وصورها، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها، وبالحركة والسكون والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة، واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه، والأعراض النفسية من الغم والحزن والغضب والهم قالوا: والغرض بالطب في تدبير الأجسام؛ حفظ الصحة الموجودة في البدن الصحيح، واجتلابها للعليل؛ فالواجب ان يكون حفظ الصحة، إنما هو بمعرفة الأسباب المصححة؛ فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات، التي قد صحت إذا أراد علاج المريض، النظر في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات والأزمنة والأوقات الحاضرة والأسباب، ليستدل بجميع ذلك. وهذا يا أمير المؤمنين قول أبقراط وجالينوس[1]، فيمن تقدم وتأخر عنهم.

---

١ ـ أبقراط: طبيب يوناني يعرف بـ «أبي الطب» ولد في جزيرة الكوس (اليونان) ٤٦٠ق.م. وهو أشهر الأطباء الأقدمين. فصل الطب عن الخرافات والغيبيات وأقامه على ـ

قالوا: وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية، مع اتفاقهم على ما وصفنا، وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال؛ فمنهم من زعم أن يستدل على طبيعة الشيء، من الأغذية والأدوية بطعمه أو ريحه أو لونه أو قوامه أو فعله أو

= اساس علمي. فكان له أعمق الأثر في تقدمه. ويجمل نظريته عن المرض ان الجسم يحتوي على أربعة أخلاط: الدم والبلغم والسوداء والصفراء. وأن علاقة بعض هذه الأخلاط ببعض، تقرر صحة المرء ومزاجه. من مصنفاته: «الحكم الأبقراطية» و «الأهوية والأمواء والأماكن». عرفه العرب باسم بقراط، ونقلوا كتبه الى العربية وأضافوا اليها شروحاً وتفاسير. منها: «تقدمة المعرفة» و «طبيعة الانسان». توفي ٣٧٠ق. م.

- جالينوس: طبيب وكاتب يوناني، ينسب اليه خمسمائة مؤلف، أغلبها في الطب والفلسفة. وقد أضاف الى ما سبقه من معارف طبية، باكتشافاته التي توصل اليها؛ بالتجريب وبتشريح أجسام الحيوان وظل جالينوس حتى القرن الـ ١٦ مرجعاً مسلماً به، ولأعماله في التشريح أهمية خاصة، فبين أن الشرايين تحمل الدم لا الهواء. وأضاف الكثير الى المعرفة بالمخ والأعصاب والحبل الشوكي. والنبض.

تأثيره في الجسد، وزعموا أن الوثيقة في الإستدلال بالأجزاء، إذا كانت الألوان والروائح وسائر ما ذكرنا، من أفعال الطبائع الأربع؛ كما أن الاسخان والتبريد والتليين فعل لها؛ وزعمت طائفة اخرى منهم، أن أصحّ الشهادات وأثبت القضايا، في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء، بما أخذ من فعله في الجسد، دون الطعم والرائحة، وما سوى ذلك، فإن الإستدلال بما سوى الفعل والتأثير لا يقطع به، ولا يعول في الحكم، على طبيعة الدواء المفرد والمركب.

قال الواثق لحنين من بين الجماعة: ما أول الآت الغذاء من الانسان؟

قال: أول آلات الغذاء من الإنسان الفم، وفيه الأسنان والأسنان اثنتان وثلاثون سناً، منها في اللحي الأعلى ستة عشر سناً، وفي اللحي الأسفل كذلك؛ ومن ذلك أربعة في كل واحد من اللحيين عراضٌ محدودة الأطراف، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج الى قطعه، من الأطعمة اللينة، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين، وهي الثنايا والرباعيات، وعن جنبي هذه

الأربعة في كل واحد من اللحيين سنان ، رؤسهما حادة وأصولها عريضة وهي الأنياب ، وبها يكسر كل ما يحتاج الى تكسيره، من الأشياء الصلبة مما يؤكل ؛ وعن جنبي النابين في كل واحد من اللحيين خمس أسنان أخر عوارض خشن، وهي الأضراس ، ويسميها اليونانيون الطواحن ، لانها تطحن ما يحتاج الى طحنه مما يؤكل ، وكل واحد من الثنايا والرباعيات والأنياب له أصل واحد ، وأما الأضراس فما كان منها في اللحي الأعلى فله ثلاثة أصول ، خلا الضرسين الأقصيين ، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة ، وما كان من الأضراس في اللحي الأسفل ، فلكل واحد منهما أصلان ، خلا الضرسين الأقصيين ، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة ، وإنما احتيج الى كثرة أصول الأضراس ، دون سائر الاسنان ، لشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأعلى الفم .

قال الواثق: أحسنت فيما ذكرت من هذه الآلات، فصنف لي كتاباً تذكر فيه ما يحتاج الى معرفته من ذلك، فصنف له كتاباً، جعله ثلاث

مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء، والمسهل وآلات الجسد.

وقد ذكر أن الواثق سأل حنيناً، في هذا المجلس وفي غيره عن مسائل كثيرة، وأن حنيناً أجاب عن ذلك، وصنف في كل ذلك كتاباً، ترجمه بكتاب «المسائل الطبيعية» يذكر فيه أنواعاً من العلوم.

فكان مما سأل الواثق حنيناً من المسائل؛ وقيل: بل أحضر له الواثق نديماً من ندمائه، فكان يسأله بحضرته، والواثق يسمع ويتعجب مما يورده السائل والمجيب، الى أن قال: فما الأشياء المغيرة للهواء؟

قال: حنين: خمس، وهي أوقات السنة، وطلوع الكواكب وغروبها، والرياح، والبلدان، والبحار.

قال السائل: فكم هي أوقات السنة؟

قال حنين: أربع: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، فمزاج الربيع معتدل في الحرارة والرطوبة، ومزاج الصيف حار يابس، ومزاج الخريف بارد يابس، ومزاج الشتاء بارد رطب.

قال السائل: أخبرني عن كيفية تغيير الكواكب للهواء؟

قال حنين: إن الشمس متى قربت منها، أو قربت هي من الشمس، كان الهواء أزيد سخونة، وخاصة كلما كانت أعظم، ومتى بعدت الشمس، أو بعدت هي من الشمس، كان الهواء أزيد برداً.

قال السائل: أخبرني عن كيفية أعداد الرياح؟

قال حنين: أربع: الشمال، والجنوب، والصبا، والدبور؛ فأما قوة الشمال فباردة يابسة، وأما الجنوب فحارة رطبة، وأما الصبا والدبور فمعتدلان، غير أن الصبا أميل الى الحرارة واليبس، والدبور أميل الى البرودة والرطوبة من الصبا.

قال: فأخبرني عن أحوال البلدان في ذلك؟

قال: هي أربع: الأول الارتفاع، والثاني الانخفاض، والثالث مجاورة الجبال والبحار، والرابع طبيعة تربة الأرض، والنواحي أربع، وهي: الجنوب والشمال والمشرق والمغرب، فناحية الجنوب أسخن، وناحية الشمال أبرد، وأما ناحية المشرق والمغرب

فمعتدلتان؛ واختلاف البلدان بارتفاعهما وانخفاضهما؛ لأن ارتفاعها يجعلها أبرد، وانخفاضها يجعلها أسخن، والبلدان تختلف بحسب مجاورة الجبال لها، لأن الجبل متى كان من البلد في ناحية الجنوب، جعل ذلك البلد أزيد برداً لأنه يستره من الرياح الجنوبية، وإنما تهب فيه الريح الشمالية فقط، ومتى كان الجبل من البلد في ناحية الشمال، جعل ذلك البلد أسخن.

قال: فأخبرني عن اختلاف البلدان عند مجاورتها البحار كيف اختلفت؟

قال حنين: إن كان البحر من البلد في ناحية الجنوب، فإن ذلك البلد يسخن ويرطب، وإن كان في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد.

قال السائل: فأخبرني عن البلدان كيف اختلفت بحسب طبيعة تربتها.

قال: إن كانت أرضها حجرية، جعلت ذلك البلد أبرد وأخف، وإن كانت تربة البلد حصبانية، جعلت ذلك البلد أخف وأسخن، وإن كانت طيناً جعلته أبرد وأرطب.

قال: فلم اختلف الهواء من قبل البحار؟

قال: إذا جاورت نقائع ماء، أو جيفاً أو بقولاً عفنة، أو غير ذلك مما يتعفن تغير هواؤها.

فلما كثر هذا الكلام من السائل والمجيب، أضجر ذلك الواثق، فقطع ذلك وأجاز كل واحد ممن حضر، ثم أمرهم أن يخبر كل واحد منهم عما حضره في الزهد في هذا العالم الذي هو عالم الدُّثور والفناء والغرور. فذكر كل واحد منهم ما سنح له من الأخبار عن زهد الفلاسفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين كسقراط وديوجانس(١).

---

١ ـ سقراط: (٤٦٩ـ٣٩٩ق.م) فيلسوف يوناني من أثينا. أبوه نحات وامه قابلة. لم يترك أثراً مكتوباً. لكن سجل حياته وتعاليمه تلميذه أفلاطون في «محاوراته» وأكسانوفون في «مذكراته». ويعتقد أن له رسالة في إصلاح الحالة العقلية والخلقية. أهمل شؤونه الخاصة وجال في الطرقات والأسواق والملاعب، يتحدث الى الناس في الفضيلة والعدل والتقوى وما اليها. أتهم بإفساد عقائد الشبان، فحوكم وحكم عليه بالموت. ومحور فلسفة سقراط أن هنالك حقائق عقلية ثابتة يمكن استنباطها من الحالات الجزئية المتغيرة، وأن الانسان إذا =

. . . .

= أدرك بعقله فضيلة سلك بمقتضاها. فالعلم والفضيلة شيء واحد لا يختلف باختلاف الأفراد.

- ديوجانس أو ديوجنيس (٤١٢-٣٢٣ق.م) فيلسوف يوناني عاش في أثينا داعياً الى البساطة، فعاش في برميل. وعندما سأله الاسكندر الأكبر: ماذا يتمنى؟ أجابه: انه يتمنى أن يبعد عنه حتى لا يحجب ضوء الشمس. ومما يروى عنه أنه كان يجوب الطرقات نهاراً حاملاً مصباحاً ليبحث في ضوئه عن « الانسان » أي الانسان الذي تتمثل فيه الفضائل البشرية الصحيحة.

الخمار الأسود*

قال الأصمعي: قدم عراقي بعدلٍ(1) من خمر العراق الى المدينة، فباعها كلها إلا السود، فشكا ذلك الى الدارمي(2)، وكان قد تنسك وترك الشعر

---

* ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج٧ ص١٣/ الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ج٢ ص١٧٩

١ ـ العدل: الغرارة أي الجوالق، لأنه يحمل على جنب البعير ويعدل بآخر.

٢ ـ الدرامي: وهو ربيعة بن عامر، ولقب مسكيناً بقوله:

أنا مسكين لمن أنكرني
ولمن يعرفني جدّ نطق
لا أبيع الناس عرضي إنني
لو أبيع الناس عرضي لنفق

وقال أيضاً

سميت مسكيناً وكانت لجاجة
وإني لمسكين الى الله راغب =

ولزم المسجد، فقال: ما تجعل لي على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك؟

قال: ما شئت!

قال: فعمد الدارمي الى ثياب نسكه، فألقاها عنه، وعاد الى مثل شأنه الأول، وقال شعراً رفعه الى صديق له من المغنين، فغنى به. وكان الشعر:

قـــل للمليحـــة في الخمـــار الأســـود
مـــاذا فـــعـلت بـــزاهـــد متـــعـــبـــد

قــد كان شمَّر للصــلاة ثيابه
حتى خطرت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه
لا تقتليه بحق آل محمــد

فشاع هذا الغناء في المدينة، وقالوا: قد رجع الدارمي وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم تبق

= شاعر شريف من سادات قومه هاجى الفرزدق فاتقاه الفرزدق ان يعين عليه جريراً واتقاه مسكين أن يعين عليه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. ودخل شيوخ بني عبد الله وبني مجاشع فتكافا. توفي سنة ۷۰۸م.

مليحة في المدينة ، إلا اشترت خماراً أسود ، وباع التاجر جميع ما كان معه ، فجعل إخوان الدارمي من النساك-يلقون الدارمي فيقولون : ماذا صنعت ؟

فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين ، فلما نفذ ما كان مع العراقي ، رجع الدارمي الى نسكه ولبس ثيابه .

أيُّهما أحسن غناءً؟*

ذكر أبو أيوب المدائني، أن عبد الرحمن بن إبراهيم المخزومي قال: أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عطاء بن أبي رباح[1] عن مسألة، فوجدته في دار يقال لها دار المعلى، وعليه ملحفة معصفرة، وهو جالس على منبر، وقد ختن ابنه، والطعام يوضع بين يديه، وهو يأمر به أن يفرق في الخلق. فلهوت مع الصبيان ألعب بالجوز، حتى أكل القوم وتفرقوا، وبقي مع عطاء خاصته؛ فقالوا: يا أبا محمد؛ لو أذنت لنا فأرسلنا الى العريض وإبن سريج!

---

* الأصفهاني: ابو الفرج ـ الأغاني ج١ ص١٠٩

١ ـ عطاء بن أبي رباح: أبو محمد. وأمه سوداء تسمى بركة، نشأ بمكة وتعلم الكتاب بها، وهو مولى بني فهر، وكان على ما قال إبن قتيبة: أسود أفطس أشل أعرج، ثم عمي بعد ذلك ومات سنة ١١٤هـ. كان طويل الصمت، انفرد بالفتوى بمكة هو ومجاهد، وكان بنو أمية يصيحون في الموسم لا يفتي أحد غيره.

فقال: ما شئتم.

فأرسلوا اليهما، فلما أتيا قاموا معهما، وثبت عطاء في مجلسه فلم يدخل، فدخلوا بهما بيتاً في الدار، فتغنيا وأنا أسمع، فبدأ إبن سريج فنقر بالدف، وتغنى بشعر كثير:

بليلى وجارات لليلى كأنها
نعاج الملا[1] تُحدى بهن الأباعر
أمنقطع يا عز ما كان بيننا
وشاجرني يا عز فيك الشواجر[2]
إذا قيل هذا بيت عزة قادني
اليه الهوى استعجلتني البوادر[3]
أصد وبي مثل الجنون لكي يرى
رواة الخنى[4] أني لبيتك هاجر

---

١ ـ الملا: الصحراء/ المتسع من الأرض.
٢ ـ الشواجر: الموانع/ الشواغل.
٣ ـ البوادر م البادرة: الحدة أو ما يبدو من الانسان عند حدته: «بدرت منه بوادر غضب»
٤ ـ الخنى: الفحش في الكلام. وأخنى عليه في الكلام: أفحش.

ألا ليت حظي منك يا عز أنني
إذا نبت[1] باع الصبرلي عنك تاجر

فكأن القوم نزل عليهم السبات، وأدركهم الغشى[2]، فكانوا كالأموات؛ ثم أصغوا اليه بآذانهم، وشخصت اليه أعينهم، وطالت أعناقهم. ثم غنى الغريض بصوتٍ أنسيته بلحن آخر، ثم غنى إبن سريج ووقع بالقضيب، وأخذ الغريض الدف، فغنى بشعر الأخطل:

فقلت أصبحونا لا أبا لأبيكم
وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
وقلت: اقتلوها[3] عنكم بمزاجها
فأكرم بها مقتولة حين تقتل

---

١ ـ نبا الشيء: بعد وتأخر ولولم يستقر مكانه. ونبا السهم عن الهدف: قصر ولم يصبه.
٢ ـ غشي عليه: ألم به ما غشى فهمه وافقده الحس والحركة فهو مغشي عليه. وأغشى الليل: أظلم
٣ ـ اقتلوها: امزجوها (ويعني الخمر)

أناخوا فجرُّوا شاصيات[1] كأنها
رجال من السودان لم يتسربلوا

فو الله ما رأيتهم تحركوا، ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول:

ثم غنى الغريض بشعر آخر وهو:

هل تعرف الرسم والأطلال والدِّمنا
زدن الفؤاد على ما عنده حزنا
دار لأسماء إذ كانت تحل بها
وإذ ترى الوصل فيها بيننا حسنا
إذ تستبيك بمصقول عوارضه
ومقلتي جؤذر[2] لم يعد أن شدنا[3]

---

١ - شصيت القربة: ملئت ماءً فارتفعت قوائمها. والشاصيات: الزقاق المملوءة.
٢ - الجؤذر: ولد البقرة الوحشية.
٣ - شدن الظبي: قوي واستغنى عن أمه؛ ويقال عن جميع وُلْد ذوات الظلف والخف والحافر.

ثم غنى الغريض في شعر إبن أبي ربيعة وهو قوله:

كفى حزناً أن تجمع الدار شملنا
وأمسي قريباً لا أزورك كاشما
دع القلب لا يزدد خبالاً[1] مع الذي
به منك أو داري جواه المكتما
ومن كان لا يعدو هواه لسانه
فقد حل في قلبي هواك وخيما
وليس بتزويق[2] اللسان وصوغه
ولكنه قد خالط اللحم والدما

قال الراوي: وما زالا يغنيان، وعطاء يسمع على منبره ومكانه، وربما رأيت رأسه قد مال وشفتيه تتحركان، حتى بلغته الشمس، فقام يريد منزله، فما سمع السامعون شيئاً أحسن منهما، وقد رفعا أصواتهما وتغنيا.

ولما بلغت الشمس عطاء، قام وهم على طريقة

---

١ ـ خبالاً: جنوناً.

٢ ـ التزويق: التزيين والتحسين.

واحدة في الغناء، فاطَّلع في كوة البيت، فلما رأوه قالوا: يا أبا محمد، أيهما أحسن غناءً.

قال: الرقيق الصوت، يعني إبن سريج.

حلف الفضول*(١)

حضر رسول الله (ص) حلف الفضول، وقد جاوز العشرين، وقال بعدما بعثه الله: حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً، ما يسرني به حمر النعم(٢)، ولو دعيت اليه اليوم لأجبت.

---

* اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٧/إبن سعد ـ الطبقات الكبرى ج١ ص ١٢٨ / ابن ابي الحديد ـ شرح نهج البلاغة المجلد ٣ص ٤٦٤/الأمين: السيد محسن ـ أعيان الشيعة ج٢ ص٣

١ ـ حلف الفضول: دعا اليه الزبير بن عبد المطلب، فتعاقد بنو هاشم وزهرة وتيم وتعاهدوا بأن يكونوا مع المظلوم حتى يُؤدى اليه حقه، ما بلّ بحر صوفة، وفي التآسي في المعاش ولا يعلم بأن أحداً سبق بني هاشم بهذا الحلف.

٢ ـ النعم واحد الأنعام: وهي المال الراعية/ الإبل والشاء يذكر ويؤنث/ النعم: الإبل خاصة، والأنعام: الإبل والبقر والغنم.

وكان سبب حلف الفضول، أن قريشاً تحالفت أحلافاً كثيرة على الحمية والمنعة، فتحالف المطيبون وهم بنو عبد مناف، وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث، ما أقام حِراء وثبير(١) وما بلَّ بحرٌ صوفةً.

وصنعت غائكة بنت عبد المطلب طيباً، فغمسوا أيديهم فيه. وقيل: أن الطيب كان لأم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وهي توأم عبد الله أبي رسول الله، وتحالفت اللعقة، وهم بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عُدَي، على أن يمنع بعضهم بعضاً، ويعقل بعضهم عن بعض، وذبحوا بقرة فغمسوا أيديهم في دمها، فكانت قريش تظلم في الحرم الغريب، ومن لا عشيرة له حتى أتى رجل من بني أسد بن خزيمة بتجارة، فاشتراها رجل من بني سهم، فأخذها السهمي وأبى أن يعطيه الثمن، فكلم قريشاً واستجار بها، وسألها إعانته على أخذ حقه،

---

١ ـ ثبير: جبل بمكة. ويقال: أشرِق ثبير كيما نُغير، وهي أربعة أثبرة: ثبير غيناء، وثبير الأعرج، وثبير الأحدب، وثبير حراء

فلم يأخذ له أحدٌ بحقه، فصعد الأسدي أبا قبيس فنادى بأعلى صوته:

يــا أهــل فهــرٍ لمـظلوم بضــاعتــه
ببـطن مكـة نــائي الأهـل والنفــر
إن الحــرام لمـن تمَّتْ حــرامتــه
ولا حــرام لـشــوبي لابس الـغــدر

وقد قيل: لم يكن رجل من بني أسد، ولكنه قيس بن شيبه السلمي باع متاعاً، من أبي خلف الجمحي، وذهب بحقه، فقال هذا الشعر، وقيل: بل قال:

يــآل قصي كيفَ هــذا في الحــرم
وحــرمــة البيــت وأخــلاق الكــرم

أظلمُ لا يُمنع مني من ظلم

فتـذممت قريش، فقـاموا فتحـالفـوا، ألا يُـظالم غريب ولا غيره، وأن يؤخذ للمظلوم من الـظالم، واجتمعـوا في دار عبد الله بن جـدعـان التيمي،

وكانت الأحلاف هاشم وزهرة وتيم والحارث بن فهر فقالت قريش: هذا فضول من الحلف، فسمي حلف الفضول.

وقال بعضهم: حضره ثلاثة نفر يقال لهم الفضل بن قضاعة، والفضل بن حشاعة، والفضل بن بضاعة، فسمي بهذا حلف الفضول.

وقد قيل: إن هؤلاء النفر، حضروا حلفاً لجرهم فسمي حلف الفضول بهم، وشبه بالحلف في تلك السنة.

مجلس عند يحي*

كانَ يحي بن خالد(1) ذا علم ومعرفة، وبحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام، وغيرهم من أهل الآراء والنحل، فقال لهم يحي وقد اجتمعوا عنده: قد أكثرتم الكلام في الكمون(2) والظهور، والقدم والحدوث، والاثبات

---

* المسعودي ـ مروج الذهب ج٣ ص٣٧٩.

١ ـ يحي بن خالد بن برمك البرمكي؛ وكان المهدي قد جعل الرشيد في حجر يحي فعلمه الأدب وكان يدعوه أبا. ومن كلام يحي، ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الهدية والكتاب والرسول. وكان يقول لبنيه؛ اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون. وقال أيضاً: إذا أقبلت فانفق، فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت فانفق فإنها لا تبقى. وفيه يقول العتابي:

سألت الندى والجود حرَّان أنتما؟

فقالا: كلانا عبد يحي بن خالد

٢ ـ كمن: توارى واختفى/ دخل في الأمر لا يُفطن له.

والنفي، والحركة والسكون، والمماسة والمباينة، والوجود والعدم، والجر والطفرة، والأجسام والأعراض، والتعديل والتجريح، ونفي الصفات وإثباتها، والاستطاعة والأفعال، والكمية والكيفية، والمضاف، والإمامة أنصٌّ هي أم اختيار، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع، فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه، وخطر ايراده بباله.

فقال علي بن هيثم وكان إماميّ المذهب من المشهورين من متكلمي الشيعة: أيها الوزير، العشق ثمرة المشاكلة[1]، وهو دليل تمازج الروحين، وهو من بحر اللطافة، ورقة الصنيعة، وصفاء الجوهر، وليس يحدُّ لسعته، والزيادة فيه نقصان من الجسد.

وقال أبو مالك الحضرمي، وهو خارجي المذهب ـ وهم الشراة ـ: أيها الوزير، العشق نفثُ[2]

---

١ ـ المشاكلة: الشبه. يقال: «في فلان مشاكلة من أبيه» أي شبه.

٢ ـ نفث فلاناً: سحره. يقال: «نفث الله الشيء في قلبه» أي القاه. و «نفُث في روعي أو قلبي كذا» أي ألهمته. ونفثُ الشيطان: الشعر المتضمن غزلاً.

السحر، وهو أخفى واحرّ من الجمر، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين، وامتزاج الشكلين، وله نفوذ في القلب، كنفوذ صيب المزن[1] في خلل الرمل، وهو ملك على الخصال ، تنقاد له العقول، وتستكين له الآراء.

وقال الثالث، وهو محمد بن الهذيل العلاّف، وكان معتزلي المذهب، وشيخ البصريين: أيها الوزير، العشق يختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتقى في الأجساد، ومسرعة في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون، متغير الأوهام، لا يصفو له موجود، ولا يسلم له موعود، تسرع اليه النوائب، وهو جرعة من نقيع[2] الموت، وبقية من حياض الثكل، غير أنه من أريحية تكون في الطبع، وطلاوة توجد في الشمائل، وصاحبه جواد لا يصغي الى داعية المنع، ولا يسنح به نازع العذل[3].

---

١ - المُزن: السحاب أو ذو الماء منه. حبُّ المزن: البرد

٢ - النقيع: شراب يتخذ من زبيب يُنقع في الماء؛ أو كل ما ينقع فيه التمر.

٣ - العذل: الملامة.

وقال الرابع ـ وهو هشام بن الحكم[1] شيخ الامامية في وقته، وكبير الصنعة في عصره ـ: أيها الوزير، العشق حبالة نصبها الدهر، فلا يصيد بها إلا أهل التخالص في النوائب، فإذا علق المحب في شبكتها، ونشب في أثنائها، فابعد به بعد أن يكون سليماً، أو يتخلص وشيكاً، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة، وتكافؤ في الطريقة، وملاءمة في الهمة؛ له مقتل في صميم الكبد ومهجة القلب، يعقد اللسان الفصيح، ويترك المالك مملوكاً، والسيد خولاً[2] حتى يخضع لعبدٍ عبده.

وقال النظام ابراهيم بن يسار المعتزلي، وكان

---

١ ـ هشام بن الحكم: من كبار علماء الشيعة. تتلمذ للامام جعفر الصادق (ع). اتصل بيحيي البرمكي. مات مستتراً بعد نكسة البرامكة. توسع في نظرية الامامة مناصراً الشيعة؛ لكنه قال بالتجسيم: فربه جسم طويل عريض عميق، له لون وطعم ورائحة، يتحرك ويسكن، وإن كان لا كالاجسام، نور ساطع يتلألأ من كل الجوانب، مكانه العرش تعزى اليه كتب لم يصلنا منها شيء

٢ ـ الخول جمع خولي: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية. وهو مأخوذ من التخويل أي التمليك وقيل من الرعاية.

من نُظار البصريين في عصره: أيها الوزير، العشق أرقّ من السراب، وأدبّ من الشراب، وهو من طينة عطرة، عجنت في إناء الجلالة، حلو المجتنى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد خبلاً[1] قاتلاً، وفساداً معضلاً، لا يطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة، تهمي[2] على القلوب، فتعشب شعفاً[3]، وتثمر كلفاً، وصريعه دائم اللوعة، ضيق المتنفس، مُشارف الزمن، طويل الفكر، إذا أجنّه الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى.

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة، ومعان تتقارب وتتناسب، وفيما مرّ دليل عليه.

---

١ ـ الخبل: الجنون.

٢ ـ همى الماء أو الدمع: سال لا يثنيه شيء. وهمت العين: صبت دمعها.

٣ ـ شعفه الحب: غشي قلبه من فوقه وغلبه. وشعف بفلان: ارتفع حبه الى اعلى المواضع من قلبه.

قال المسعودي: تنازع الناس ممن تقدم وتأخر، في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته، وهل ذلك من نظر وسماع، واختيار واضطرار، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن، وزواله بعد كونه؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة، أو الجسم وطباعه؟

فقال بقراط: هو امتزاج النفسين، كما لو امتزج الماء بماء مثله، عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال، والنفس ألطف من الماء وأرقّ مسلكاً، فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي، ولا تخلقه الدهور، ولا يدفعه دافع دقّ عن الأوهام مسلكه، وخفي عن الأبصار موضعه، وحارت العقول عن كيفية تمكنه، غير أن ابتداء حركته من القلب، ثم تسير الى سائر الأعضاء، فتظهر الرعدة في الأطراف، والصفرة في الألوان، واللجلجة في الكلام، والضعف في الرأي، والويل والعثار، حتى ينسب صاحبه الى النقص.

وذهب بعض الأطباء، الى أن العشق طمع يتولد في القلب، وينمى وتجتمع اليه مواد من الحرص، فإذا قوي زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والتمادي، والتفكر والأماني، والهيمان والأحزان، وضيق الصدر

وكثرة الفكر، وقلة الطعم وفساد العقل ويبس الدماغ، وذلك أن التمادي في الطمع للدم محرق، فإذا احترق استحال الى السواد، فإذا قويت جلبت الفكر فتستعلي الحرارة، وتلتهب الصفراء، ثم تستحيل الصفراء الى الفساد، فتحلق حينئذٍ بالسوداء، وتصير مادة لها فتقوى؛ ومن طبائع السوداء الفكر، فإذا فسد الفكر اختلطت **الكيموسات**[1] بالفساد، ومع الاختلاط، تكون الفدامة[2] ونقصان العقل، ورجاء مالا يكون ولا يتم، فحينئذٍ يشتد ما به، فيموت أو يقتل نفسه، وربما شهق فتخفى روحه، أربعاً وعشرين ساعة، فيظن أنه مات، فيقبرونه حياً، وربما تنفس الصعداء، فتخفى روحه في تامور قلبه، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت، وربما ارتاح وتشوق بالنظر، ويرى من يحب فجأة، وأنت ترى العاشق اذا سمع ذكر من يحب، كيف يهرب دمه ويحول لونه.

---

١ ـ الكيموس: الخلط أو الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة فيه (يونانية).

٢ ـ الفدامة: العي عن الكلام في رخاوة وقلة فهم/ الحمق.

وقال بعضهم: إن الله خلق كل روح، مدورة على هيئة الكرة، وجزأها أنصافاً، وجعل في كل جسدٍ نصفاً، فكل جسدٍ لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه، كان بينهما عشق ضرورة للمناسبة القديمة. وتفاوت أحوال الناس في ذلك من القوة والضعف على قدر طبائعهم.

ولاهل هذه المقالة خطب طويل فيما ذكرنا. وأن النفوس نورية جوهر بسيط، نزل من علّوٍ الى هذه الأجساد فسكنها، وأن النفوس تلي بعضاً على حسب مجاورتها، في عالم النفس في القرب والبعد، وذهب الى هذا المذهب جماعة ممن يظهروا الاسلام، واعتلّوا بدلائل من القرآن والسنن، ودلائل القياس عند أنفسهم. من ذلك قوله عز وجل: ﴿ **يأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾[1]. قالوا: فالرجوع الى الحال لا يكون إلا بعد كونٍ متقدم. ثم قول النبي (ص) فيمن رواه سعيد بن أبي مريم قال: أخبرنا يحي بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي (ص)

---

١ ـ سورة الفجر الآية ٢٨

أنه قال: «الأرواح جنود مجندة؛ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وذهب الى هذا القول جماعة من الأعراب، ففي ذلك يقول جميل بن عبد الله بن معمر العذري في بثينة:

تعلق روحي روحها قبل خلقنا
ومن قبل ما كنا نطافاً، وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً
وليس وإن متنا بمنتقض العهد
ولكنه باقٍ على كل حالة
وزائرنا في ظلمة القبر واللحد.

وقال جالينوس: المحبة تقع بين العاقلين، لتشاكلهما في العقل، ولا تقع بين الأحمقين، وإن كانا شكلين في الحمق، لأن العقل يجري على ترتيب، فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة، والحمق لا يجري على ترتيب، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان.

وقسم بعض العرب الهوى فقال:

ثـلاثـة أحبـاب، فحبٌّ عـلاقـةٌ
وحبٌّ تِمِلّاقٌ[1]، وحب هـو القتـل

وقال الصوفية من البغداديين: إن الله عز وجلّ، إنما امتحن الناس بالهوى، ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه، ليشق عليهم سخطه، ويسرّهم رضاه، فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله، إذ كان لا مثل له، ولا نظير وهو خالقهم غير محتاج اليهم، ورازقهم مبتدئاً بالمن عليهم، فإذا أوجبوا على انفسهم طاعة سواه، كان تعالى أحرى أن يتبع رضاه.

وللباطنية المتصوفة في هذا، كلام كثير وخطب طويل.

وقال أفلاطون: ما أدري ما الهوى، غير أنه جنون الهي، والهوى لا محمود ولا مذموم.

وكتب بعض ظرفاء الكتاب الى أخ له: إني صادفت منك جوهر نفسي، فانا غير محمود على

---

١ ـ مَلِقه ومَلِق له ومالقه: تودد اليه وتذلل له، وأبدى له بلسانه من الاكرام والود ما ليس في قلبه.

الانقياد اليك بغير زمام، لأن النفس يتبع بعضها بعضاً.

وللناس ممن خلف وسلف، من الفلاسفة والفلكيين، والاسلاميين وغيرهم، كلام كثير في العشق.

أكمل الصفات*

اجتمع عامر بن الظرب العدواني، وحممة بن رافع الدوسي، عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلا حتى أسمع ما تقولان.

قال عامر لحممة: أين تحب أن تكون أياديك؟

قال عند ذي الرثْيَة[1] العديم، وذي الخلة الكريم، والمعسر الغريم، والمستضعف الهضيم.

قال: من أحقّ الناس بالمقت؟

قال: الفقير المختال، والضعيف الصوال، والعييُّ القوال.

قال: فمن أحق الناس بالمنع؟

---

* القالي: أبو علي - الأمالي ج٢ ص٢٧٦.

١ - الرَّثْية: الضعف والفتور/ الحمق.

قال: الحريص الكاند[1]، والمستميد الحاسد، والملحف الواجد.

قال: فمن أجدر الناس بالصنيعة؟

قال: من إذا أُعطي شكر، واذا مُنع عذر، وإذا موطل صبر، واذا قَدُمَ العهد ذكر.

قال: من أكرم الناس عشرة؟

قال: من إن قُرب منح، وإن بَعُد مدح، وإن ظُلم صفح، وإن ضُويق سمح.

قال: من الأم الناس؟

قال: من إذا سأل خضع، وإذا سئل منع، وإذا ملك كنع[2]، ظاهره جشع، وباطنه طبع.

قال: فمن أحلم الناس؟

قال: من عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم تطغه عزة الظفر.

قال: فمن أحزم الناس؟

---

١ - كند: كفر النعمة. قال تعالى: ﴿إن الانسان لربه لكنود﴾. قيل هو الذي يأكل وحده، ويمنع رفده ويضرب عبده. وأرض كنود: لا تنبت شيئاً (لسان العرب مادة كند)

٢ ـ كنع: تقبض وانضم

قال: من أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل العواقب نصب عينيه، ونبذ التهيب دَبْرَ أذنيه.

قال: فمن أخرق الناس؟

قال: من ركب الخطار، واعتسف[1] العثار، وأسرع في البدار[2]، قبل الاقتدار.

قال: فمن أجود الناس؟

قال: من بذل المجهود، ولم يأس على المعهود.

قال: فمن أبلغ الناس؟

قال: من جلّى المعنى المزيز[3]، باللفظ الوجيز، وطبق المفصل قبل التحريز.

قال: من أنعمُ الناس عيشاً؟

قال: من تحلى بالعفاف، ورضي بالكفاف، وتجاوز ما يخاف الى مالا يخاف.

قال: فمن أشقى الناس؟

قال: من حسد على النعم، وتسخط على القسم، واستشعر الندم، وعلى فوت مالم يحتم.

---

١ ـ اعتسف الطريق: ركبه على غير هداية ولا دراية

٢ ـ بادر بداراً الى الشيء: أسرع

٣ ـ المزيز: القليل/ الصعب.

قال: من أغنى الناس؟

قال: من استشعر اليأس، وأبدى التجمل للناس، واستكثر قليل النعم، ولم يسخط على القسم.

قال: فمن أحكم الناس؟

قال: من صمت فاذكر، ونظر فاعتبر، ووعظ فازدجر.

قال: من أجهل الناس؟

قال: من رأى الخرق مغنماً، والتجاوز مغرماً.

تحريم الغناء والرثاء*

لما دخل المدينة عثمان بن حيان المري والياً عليها، اجتمع الأشراف عليه من قريش والأنصار؛ فقالوا له: إنك لا تعمل عملاً أجدى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء.

ففعل وأجلّ أهلهما ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة.

فقدم إبن أبي عتيق في الليلة الثالثة؛ فحطّ رحله بباب سلّامة[1] وقال لها بدأت بك قبل أن أصير الى منزلي.

* المبرد ـ الكامل في الأدب ج١ ص٣٨٠/ الحصري ـ ذيل زهر الآداب ص٤٤/ الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ج٨ ص١٠

١ ـ سلامة القس: مولدة من مولدات المدينة، وبها نشأت وأخذت الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السمح وذويهم فمهرت. وإنما سميت سلامة القس لأن رجلاً يعرف =

فقالت: أوما تدري ما حدث؟ وأخبرته الخبر!

فقال: أقيمي الى السحر حتى ألقاه!

فقالت: إنا نخاف ألَّا تُغني شيئاً، وننكظ[1]

فقال: إنه لا بأس عليك!

ثم مضى الى عثمان فاستأذن عليه، فاخبره أن ما أقدمه عليه، إلا حب التسليم، وقال له: إن من أفضل ما عملت، تحريم الغناء والرثاء. وقال: أرجو أن لا تكون عملت عملاً هو خير لك من ذلك.

قال عثمان: قد فعلت ذلك، وأشار به عليَّ أصحابك.

فقال: قد أصبت، ولكن ما تقول، أمتع الله بك، في امرأة كانت هذه صناعتها، وكانت تكره على

= بعبد الرحمن بن عمار الجشمي، من قراء أهل مكة، وكان يلقب بالقس لعبادته شغف بها وشهرت وكانت من أجمل النساء وأحسنهن غناءً فغلب عليها لقبه؛ واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان وعاشت بعده، وكان إحدى من أتهم بها الوليد من جواري أبيه.

١ ـ نكظ: جاع شديداً. ونكظ حاجته: عسَّرها.

ذلك، ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير، وإني رسولها اليك، تقول أتوجه اليك واعوذ بك أن تخرجني من جوار رسول الله (ص) ومسجده.

فقال عثمان: فإني ادعها لك ولكلامك.

قال إبن أبي عتيق: لا يدعك الناس، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر اليها، فإن رأيت أن مثلها ينبغي أن يترك تركتها.

قال: نعم! فجاءه بها، وقال لها: إجعلي معك سبحة وتخشعي، ففعلت؛ فلما دخلت على عثمان حدثته، وإذا هي من أعلم الناس بالناس، وأعجب بها، وحدثته عن آبائه وأمورهم، ففكه[1] لذلك، فقال لها إبن أبي عتيق: اقرئي للأمير. فقرأت له، فقال لها: إحدي له. ففعلت. فكثر تعجبه فقال: كيف لو سمعتها في صناعتها؟! فلم يزل ينزله شيئاً شيئاً حتى أمرها بالغناء. فقال لها إبن أبي عتيق: غني، فغنت:

---

١ ـ فكه: كان طيب النفس مزاحاً ضحوكاً مضحكاً.

سددن خَصَاص[1] الخيمَ[2] لما دخلنه
بكــل لبــانٍ[3] واضــحٍ وجبــين

فنزل عثمان بن حيان عن سريره، حتى جلس بين يديها، ثم قال: والله ما مثلك يخرج عن المدينة!

قال إبن أبي عتيق: لا يدعك الناس، يقولون أقرَّ سلامة وأخرج غيرها.

قال: فدعوهم جميعاً، فتركوهم جميعاً.

---

١ ـ الخصاص، الواحدة «خصاصة»: كل خلل أو خرق في باب أو برقع ونحوهما/ الفرج في البناء وما شاكله.

٢ ـ الخيم مفردها الخيمة: كل بيت ليس من حجارة أو ما يقوم مقامها.

٣ ـ اللبان واحدته لبنة: المضروب من الطين مربعاً للبناء.

أنت أنت!!*

يروى أن رجلاً من هذيل قال:

قال معبد: غنيت فاعجبني غنائي، وأعجب الناس، وذهب لي به صيت وذكر. فقلت: لآتين مكة فلأسمعن من المغنين بها، ولأغنينّهم ولأتعرفن اليهم.

فابتعت حماراً، فخرجت عليه الى مكة. فلما قدمتها بعت حماري، وسألت عن المغنين أين يجتمعون؟

فقيل: بِقُعَيْقعان[1] في بيت فلان.

فجئت الى منزله بالغلس[2]، فقرعت الباب.

فقال: من هذا؟

فقلت: انظر عافاك الله.

---

* الأصفهاني: أبو الفرج - الأغاني ج١ ص١٨

١ - قعيقعان: قرية قرب مكة فيها مياه وزروع ونخيل.

٢ - الغلس: ظلمة آخر الليل.

فدنا وهو يسبح ويستعيذ، كأنه يخاف ففتح، فقال: من أنت ـ عافاك ـ الله؟

قلت: رجل من أهل المدينة.

قال: فما حاجتك؟

قلت: أنا رجل أشتهي الغناء، وأزعم أني أعرف منه شيئاً، وقد بلغني أن القوم يجتمعون عندك، وقد أحببت أن تنزلني في جانب منزلك، وتخلطني بهم، فإنه لا مؤنة عليك ولا عليهم مني.

فلوى[1] شيئاً ثم قال: أنزل على بركة الله.

فنقلت متاعي، فنزلت في جانب حجرته.

ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد، حتى اجتمعوا فأنكروني، وقالوا: من هذا الرجل؟

قال: رجل من أهل المدينة، ضيف يشتهي الغناء، ويطرب عليه، ليس عليكم منه عناء ولا مكروه.

فرحبوا بي وكلمتهم، ثم انبسطوا وشربوا وغنوا،

---

١ ـ فلوى شيئاً: فتمكث قليلاً

فجعلت أعجب بغنائهم وأظهر ذلك لهم، ويعجبه مني حتى أقمنا أياماً، وأخذت من غنائهم - وهم يدرون - أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً، ثم قلت لا سريج: أني فديتك، أمسك عليَّ صوتك:

قـل لهـنـد وتـربهـا[1]
قـبـل شـحط[2] الـنـوى غـ
إن تجـودي فطـالمـاً
بـت لـيـلي مـسـهـ
أنـت في ود بـيـنـنـا
خـيـر مـا عـنـدنـا يـ

قال: : أو تحسن شيئاً؟

قلت: تَنَظَّر[3] وعسى أن أصنع شيئاً، واندفع فيه فغنيته.

فصاح وصاحوا، وقالوا: أحسنت! قاتلك الله!

---

١ - الترب ج أتراب: من ولد معك، وأكثر ما يستعمل المؤنث. يقال: «هذه ترب فلانة» إذا كانت على سنها.

٢ - شحط: بعد

٣ - تنظر: تريث/ تمهل

قلت فأمسك عليَّ صوت كذا.

فأمسكوه عليَّ فغنيته؛ فازدادوا عجباً وصياحاً، فما تركت واحداً منهم، إلا غنيته من غنائه أصواتاً قد تخيرتها، فصاحوا حتى علت أصواتهم، وهرفوا[1]، وقالوا: لأينت أحسن باداء غنائنا عنا منا.

قلت: فأمسكوا عليَّ ولا تضحكوا بي، حتى تسمعوا من غنائي.

فأمسكوا عليَّ، فغنيت صوتاً من غنائي؛ فصاحوا بي. ثم غنيتهم آخر وآخر، فوثبوا الي وقالوا: نحلف بالله، أن لك لصيتاً وإسماً وذكراً، وأن لك فيها ههنا لسهماً عظيماً فمن أنت؟

قلت: أنا معبد.

فقبلوا رأسي، وقالوا: لفَّقت[2] علينا وكنانتهاون بك، ولا نعدُّك شيئاً، وأنت أنت!

---

١ ـ هرف بفلان: أطرأ بالمدح إعجاباً به. وقيل: «لا تهرف بما لا تعرف» أي لا تمدح بلا خبرة.
٢ ـ لفقت علينا: سترت علينا أمرك.

فأقمت عندهم شهراً، آخذ منهم ويأخذون مني، ثم انصرفت الى المدينة.

صعصعة في مجلس معاوية*

عن إبن الكلبي قال: دخل صعصعة بن صوحان العبدي[1] على معاوية فقال له: يا بن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها، فاخبرني عن أهل البصرة، وإياك على قوم لقوم.

قال: البصرة واسطة العرب، ومنتهى الشرف والسؤدد، وهم أهل الخطط في اول الدهر وآخره، وقد دارت بهم سروات[2] العرب، كدوران الرحا على قطبها.

---

* المسعودي - مروج الذهب ج٣ ص٥١.

١ - صعصعة بن صوحان العبدي: من الخطباء المشهورين الذين ذكرهم إبن النديم في الفهرست ص ١٨١؛ اشتهر بمعرفة أنساب العرب، ومن المقدمين بعلم أحوال قومه في الجاهلية.

٢ - السرو: الفضل/ السخاء في المروءة. سروات القوم: سادتهم ورؤساؤهم.

قال: فأخبرني عن أهل الكوفة.

قال: قبة الاسلام، وذروة الكلام، ومَظَانٌّ[1] ذوي الاعلام إلا أن بها أجلافاً تمنع ذوي الأمر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة، وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة.

قال: فأخبرني عن أهل الحجاز.

قال: أسرع الناس الى فتنة، وأضعفهم عنها؛ وأقلهم غناءً فيها، غير أن لهم ثباتاً في الدين، وتمسكاً بعروة اليقين، يتبعون الأئمة الأبرار، ويخلعون الفسقة الفجار.

فقال معاوية: من البررة والفسقة ؟!

فقال: يا بن أبي سفيان، ترك الخداع من كشف القناع، عليّ وأصحابه من الأئمة الأبرار، وأنت وأصحابك من أولئك.

---

١ ـ مَظَنَّة الشيء ج مظانّ: موضعه ومألفه الذي يظن فيه وجوده. يقال: «فلان مظِنَّة الخير» أي مألفه الذي يظن فيه وجوده. و «في المسألة مظنَّة اعتراض» أي موضع.

ثم أحبَّ معاوية ان يمضي صعصعة في كلامه بعد أن بان فيه الغضب، فقال: أخبرني عن القبة الحمراء في ديار مضر.

قال: أسد مضر بُسلانٌ بين غيلين[1]، إذا أرسلتها افترست، واذا تركتها احترست[2].

فقال معاوية: هنالك يا بن صوحان العز الراسي، فهل في قومك مثل هذا؟

قال: هذا لأهله دونك يا بن أبي سفيان، ومن أحب قوماً حشر معهم.

قال: فأخبرني عن ديار ربيعة، ولا يستخفنك الجهل، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك.

قال: والله ما أنا عنهم براضٍ، ولكني أقول فيهم وعليهم: هم والله أعلام الليل، وأذناب في الدين والميل، لن تغلب رايتها إذا رسخت، خوارج

---

١ ـ بسل: شجع. الباسل الأسد. الغيل: الأجمة/ الشجر الكثير الملتف/ موضع الأسد

٢ ـ احترس منه: تحفظ وتوقى.

الـدين، برازخ اليقـين، من نصروه **فلج**[1]، ومن خذلوه **زلج**[2].

قال: فأخبرني عن مضر.

قـال: كنانـة العرب، ومعـدن العز والحسب، يقذف البحر بها آذيه، والبُّرردِيَّة.

ثم أمسك معاوية. فقال له صعصعة: سل يا معاوية وإلا أخبرتك بما تحيد عنه.

قال: وما ذاك يا بن صوحان؟

قال: أهل الشام.

قال: فأخبرني عنهم.

قال: أطوع الناس لمخلوق، وأعصاهم للخالق، عصاة الجبار، وخلفة الأشرار، فعليهم الدمار، ولهم سوء الدار.

فقال معاوية: والله يا بن صوحان إنك لحامل

---

١ - الفلج: الصبح. وفلج القوم وعلى القوم: فاز. وفلج الرجل: ظفر بما طلب.

٢ -زلج: أسرع وخف على الأرض

مُدْيَتَكَ[1] منذ أزمان، إلا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك.

فقال صعصعة: بل أمر الله وقدرته، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً.

---

١ ـ المدية: الشفرة الكبيرة، سميت كذلك لأن بها انقضاء المدى.

الحق يسعك ويسعهم*

قال أبو عباد: أتيت جميلة يوماً، وكان لي موعد، ظننت أني سبقت الناس اليها، فإذا مجلسها غاص، فسألتها أن تعلمني شيئاً.

فقالت لي: إن غيرك قد سبقك، ولا يجمل تقديمك على من سواك.

فقلت: جعلت فداك! متى تفرغين ممن سبقني؟

قالت: هو ذاك، الحق يسعك ويسعهم.

فبينا نحن كذلك، إذا أقبل عبد الله بن جعفر - وإنه لأول يوم رأيته وآخره، وكنت صغيراً كيساً[1]، وكانت جميلة شديدة الفرح - فقامت وقام الناس، فتلقته وقبلت رجليه ويديه، وجلس في صدر المجلس على كُوْم[2] لها، وتحوَّق[3] أصحابه حوله،

---

* الأصفهاني: أبو الفرج - الأغاني ج٧ ص ١٢٩.

١ - الكيس: الظريف/ الفطن/ الحسن الفهم والأدب. والعامة تقول «كويس».

٢ - الكوم: الموضع المشرف كالتل.

٣ - حاق به: أحاط. الحوق: الإطار المحيط بالشيء.=

وأشارت الى من عندها بالانصراف، وتفرق الناس، وغمزتني ألا أبرح فأقمت. وقالت: يا سيدي وسيد آبائي وموالي؛ كيف نشطت الى أن تنقل قدميك الى أمتك؟

قال: يا جميلة؛ قد علمت ما آليت على نفسك، ألا تغني أحداً إلا في منزلك، وأحببت الاستماع.

قالت: جعلت فداك! فأنا أصير اليك وأكفِّر.

قال: لا أكلفك ذلك، وبلغني أنك تغنين بيتين لامرىء القيس، تجيدين الغناء فيهما، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت.

قالت: يا سيدي نعم! فاندفعت تغني، فغنت بعودها، فما سمعت منها، قبل ذلك ولا بعد، الى أن ماتت، مثل ذلك الغناء، فسبح عبد الله بن جعفر والقوم معه، وهما:

ولما رأت أنَّ الشريعة همها
وأن البياض من فرائصها دامي

= والحوق والحوقة: الجمع الكثير

تيَّممتِ العــينَ التي عــنــد ضــارج
يفيء عليها الظلُّ، عَرْمَضُها طامي[1]

فلما فرغت قالت جميلة: أي سيدي، أزيدك؟

قال: حسبي.

فقال بعض من كان معه: بأبي جعلت فداك! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعة بهذين البيتين؟

قال: نعم! أقبل قوم من أهل اليمن، يريدون النبي (ص) فضلوا الطريق، ووقعوا على غيرها، ومكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماء، وجعل الرجل منهم يستذري[2]، بفيء السمرُ والطلح[3] يائساً

---

١ ـ العرمض: الطحلب، وهو الأخضر مثل الخطمى يكون على الماء، وقيل الخضرة على الماء، وقيل: الذي يكون كأنه نسج العنكبوت.

٢ ـ استذرى به: التجأ اليه. واستذرى بالشجر: استظل بها.

٣ ـ السمُر: شجر من العضاه وليس في العضاه أجود خشباً منه. والطلح: شجر عظيم من شجر العضاه له شوك وليس في العضاه أكثر صمغاً منه. ترعاه الإبل.

من الحياة ، إذ أقبل راكب على بعيرله ، وأنشد بعض القوم هذين البيتين فقال :

ولما رأت أن الشريعة همها
وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارجٍ
يفيء عليها الظلّ عرمضها طامي

فقال الراكب: من يقول هذا؟

قال: امرؤ القيس.

قال: والله ما كذب، هذا ضارج عندكم، وأشار لهم اليه، فحبوا على الركب، فاذا ماء عذب، واذا عليه العرمض، والظل يفيء عليه فشربوا منه ريهم، وحملوا ما اكتفوا به، حتى بلغوا الماء.

فأتوا النبي (ص) فاخبروه، وقالوا: يا رسول الله، أحياناً الله عز وجل ببيتين من شعر امرىء القيس، وأنشدوه الشعر.

فقال رسول الله (ص): « ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها، منسي في الآخرة خامل فيها، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار ».

فكل استحسن الحديث، ونهض عبد الله بن جعفر، ونهض القوم معه، فما رأيت مجلساً كان أحسن من مجلسه.

بين شمس وقمر*

لما وصف عبد الله بم جعفر، لعبد الملك بن مروان، إبن أبي عتيق، وحدّثه عن إقلاله وكثرة عياله. أمره عبد الملك بن مروان ان يبعث به اليه، فأتاه ابن جعفر، فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك وبعثه اليه. فدخل إبن أبي عتيق على عبد الملك فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه، يميسان كغصني بان بيد كل جارية مروحة، تروح بها عليه، مكتوب بالذهب في المروحة الواحدة:

إنــني أجــلب الــريـا
ح وبي يــلعــب الخــجــل
وحــجــاب إذا الحبيـ...
...ـب ثــنى الــرأس لــلقــبل
وغــيــاث إذا الــنـديـ
ـم تــغــنى أو ارتجــل

---

* ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج٧ ص ١٩

وفي المروحة الأخرى:

أنــا في الـكـف لـطيـفـة
مـسـكـني قـصـر الخـليـفـة
أنــا لا أصـلح إلا
لـظريـف أو ظـريـفـة
أو وصـيـف حـسـن الـقـد
شـبـيـه بـالـوصـيـفـة

قال ابن أبي عتيق: فلما نظرت الى الجاريتين، هونتا الدنيا علي، وأنستاني سوء حالي، ثم قلت: إن كانتا من الأنس، فما نساؤنا إلا من البهائم، فلما كررت بصري فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرت امرأتي ـ وكنت محباً لها ـ تذكرت النار. قال فبدأ عبد الله يتوجع الي بما حكى له ابن جعفر عني، ويخبرني بما لي عنده من جميل الرأي، فأكذبت له كل ما حكاه ابن جعفر عني، ووصفت له نفسي بغاية الملاء[1] والجدة، فامتلأ عبد الملك سروراً بما ذكرت له، وغماً بتكذيب ابن جعفر.

---

١ ـ المُلاء: الزكام من الامتلاء. ويقال: «فلان أملأ لعيني من فلان» أي أتم في كل شيء منظراً وحسناً.

فلما عاد اليه ابن جعفر، عاتبه عبد الملك على ما حكاه عني، وأخبره بما حلّيت له نفسي، فقال: كذب والله يا أمير المؤمنين، وإنه أحوج أهل الحجاز الى قليل فضلك، فضلاً عن كثيره!

ثم خرج عبد الله فلقيني فقال: ما حملك أن كذبتني عند أمير المؤمنين؟

قلت: أفكنت تراني تجلسني بين شمس وقمر، ثم أتفاقر عنده! لا والله ما رأيت ذلك لنفسي وإن رأيته لي.

فلما أعلم بذلك عبد الله بن جعفر عبد الملك ابن مروان قال: فالجاريتان له.

قال ابن أبي عتيق: فلما صارتا إِلي، زرت عبد الله بن جعفر، فوجدته قد امتلأ فرحاً وهو يشرب، وبين يديه عُسّ[1] فيه عسل، ممزوج بمسك وكافور، فقال: مهيم[2]؟

---

١ ـ العُسّ: القدح أو الاناء الكبير.

٢ ـ مهيم: كلمة استفهام معناها: «ما حالك؟» أو «ما حدث لك؟» أو «ما الخبر؟».

قلت: قد والله قبضت الجاريتين.

قال: فاشرب؛ فتناولت العُسّ، فجرعت منه جرعة. فقال لي: زد؛ فأبيت عليه. فقال لجارية له عنده تغنيه: إن هذا قد حاز اليوم غزالتين، من عند أمير المؤمنين، فخذي في نعتهما.

فحركت الجارية العود ثم غنت:

عهدي بها في الحي قد جردت
صفراء مثل المهرة الضامر
قد حجم(١) الثدي على نحرها
في مشرق ذي بهجة ناضر
لو أسندت ميتا الى صدرها
قام ولم ينقل الى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا
يا عجباً للميت الناشر

فلما سمعت الأبيات طربت، ثم تناولت العسّ،

---

١ ـ حجم الثدي: نهد وصار له نتوء وارتفاع.

فشربت **عللاً بعد نهل**[1]، ورفعت عقيرتي[2] أغني:

سقوني وقالوا لا تغن ولو سقوا
جبال حُنين ما سقوني لغنت

---

١ ـ العلل: الشرب الثاني يقال: «عللٌ بعد نهل» أي الشرب المتوالي بعد الشربة الأولى. والمراد: الري بعد الاكتفاء بالقليل.

٢ ـ العقيرة: صوت المغني والباكي والقارىء. يقال: «رفع عقيرته» أي صوته.

في قصر الوليد*

اشتاق الوليد بن يزيد الى معبد(1)، فوجه اليه الى المدينة فأحضر، وبلغ الوليد قدومه، فأمر ببركة بين يدي مجلسه فملئت ماء ورد، قد خلط بمسك وزعفران، ثم فرش للوليد في داخل البيت على حافة البركة، وبسط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالث، وجيء بمعبد فرأى ستراً مرخى، ومجلس رجل واحد، فقال له الحجاب: يا معبد، سلّم على أمير المؤمنين، واجلس في هذا الموضع، فسلم فردّ عليه الوليد السلام من خلف الستر، ثم قال له: حياك الله يا معبد. أتدري لمَ وجهت اليك؟

---

* الأصفهاني: أبو الفرج - الأغاني ج١ ص٢٦

١ - معبد بن وهب: المغني مولى عبدالرحمن بن قرط؛ كان أبوه أسود، وكان هو خلاسياً مديد القامة أحول، قيل أنه غنّى في أول دولة بني أمية، وأدرك دولة بني العباس، وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل صوته فكان إذا غنى يضحك منه ويهزأ به. وقد مات في أيام الوليد بن يزيد.

قال: الله أعلم وأمير المؤمنين.

قال: ذكرتك فأحببت أن اسمع منك.

قال معبد: أأغني ما حضر أم ما يقترحه أمير المؤمنين؟

قال: بل غنّي

أبكي على فتية ذلَّ الزمان لهم
فما أصابهمو إلا بما شاءوا
ما زال يعدو عليهم ريبُ دهرهمُ
حتى تفانوا وريب الدهر عداء
أبكي فراقهم عيني وأرقها
إن التفرق للاحباب بكاء

فغناه، فلما فرغ منه حتى رفع الجواري السجف[1]، ثم خرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها، ثم خرج منها فاستقبله الجواري بثياب غير الثياب الأولى، ثم شرب وسقى معبداً، ثم قال له: غنني يا معبد.

---

١ - السجف: الستران بينهما فرجة، أو الشق من السترين المقرونين على الباب أو الستر عموماً.

يـا ربـع مـسالـك لا تجيب متيّـماً
قـد عـاج نحـوك زائـراً ومسلّماً
جـادتـك كـل سحـابـة هـطالـة
حتى تـرى عن زهـرة متبسما
لـوكنت تـدري من دعـاك أجبتـه
وبكيت من حُـرَقٍ عليـه إذاً دمـا

فغناه، وأقبل الجواري فرفعن الستر، وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج، فلبس ثياباً غير تلك، ثم شرب وسقى معبداً، ثم قال له غنني .

فقال: بماذا يا أمير المؤمنين؟

قال: غنني:

عـجـبـت لـمـا رأتـني
أنـدب الـربـع المـحـيـلا[1]
واقـفـاً في الـدار أبـكـي
لأأرى إلا الـطلولا

١ ـ الربع المحيل: الذي غير الأحوال التي أتت عليه.

كيف تبكي لأناس
لا يملون الذميلا[1]
كلما قلت اطمأنت
دارهم قالوا: الرحيلا

فلما غناه، رمى نفسه في البركة، ثم خرج فردوا عليه ثيابه، ثم شرب وسقى معبداً، ثم أقبل عليه الوليد، فقال له: يا معبد، من أراد أن يزداد عند الملوك حظوة، فليكتم أسرارهم.

فقلت: ذلك ما لايحتاج أمير المؤمنين الى إيصائي به.

فقال: يا غلام، أحمل الى معبد عشرة آلاف دينار تُحصل له في بلده، وألفي دينار لنفقة طريقه، فحملت اليه كلها وحمل على البريد من وقته الى المدينة.

---

١ - الذميل: السير اللين.

مصادر الكتاب

١ ـ الأمين: السيد محسن ـ أعيان الشيعة
٢ ـ الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني
٣ ـ إبن ابي الحديد ـ شرح نهج البلاغة
٤ ـ إبن عبد ربه ـ العقد الفريد
٥ ـ إبن الجوزي ـ أخبار الأذكياء
٦ ـ إبن قتيبة ـ عيون الأخبار
٧ ـ إبن سعد ـ الطبقات الكبرى
٨ ـ الجهشياري ـ الوزراء والكتاب
٩ ـ الحصري ـ ذيل زهر الآداب
١٠ ـ ضيف: د. شوقي ـ العصر الجاهلي
١١ ـ الطبري: إبن جرير ـ تاريخ الطبري.
١٢ ـ علي: د. جواد ـ تاريخ العرب قبل الاسلام
١٣ ـ فروخ: د. عمر ـ العرب في حضارتهم وثقافتهم
١٤ ـ القالي: أبو علي ـ الأمالي
١٥ ـ القالي: أبو علي ـ ذيل الأمالي
١٦ ـ المسعودي ـ مروج الذهب

١٧ ـ المبرد ـ الكامل في الأدب
١٨ ـ النويري ـ نهاية الأرب
١٩ ـ الهاشمي: السيد أحمد ـ جواهر الأدب
٢٠ ـ اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي.

هذا الكتاب

لقد جمع كتاب «مجالس العرب» بين دفتيه، صحائف خالدة من التراث الأدبي، وحوى طائفة كبيرة من الأخبار العربية، التي يقصد بها تصوير المجالس وأندية القبائل، التي تضم شيوخ العشائر وسادتها المحنكين حيث تدور المناقشات والمحاورات والمداولات، وتنفذ فيها المقررات والتوصيات، بالاضافة الى الشؤون التجارية والدينية والاجتماعية والعسكرية؛ كما قد يعقد زواج، أو تُدرعُ فتاة، وقد يخطبون أو يستمعون الى بعض ما ينظم شعراؤهم، وفي اثناء ذلك يدلي سادتهم بحكمهم، فتكون أحكامهم مبرمة، لما أكسبتهم تجاربهم في الحياة، ولما يتمتعون به من ثقة وتقدير.

الناشر